

مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي
Ibn Al Azraq Center for Political Heritage Studies

سلسلة بحوث ودراسات التراث السياسي



أفكار في التنمية السياسية

تأليف

د. يوسف بن عثمان بن حزيم

أفكار في
التنمية السياسية

ⓒ يوسف بن عثمان محمد الحزيم، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحزيم، يوسف بن عثمان محمد
أفكار في التنمية السياسية / يوسف بن عثمان محمد الحزيم -
الرياض ١٤٣٢هـ
٢٣٨ص، ٥,١٤×٢٤ سم
ردمك: ٨-٧٥٤٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١- السعودية - الأحوال السياسية - العصر الحديث
٢- السعودية - الأحوال السياسية - مقالات ومحاضرات أ. العنوان
ديوي ٣٢٠,٩٥٣١ ١٤٣٢/٥٠٧٢

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٥٠٧٢
ردمك: ٨-٧٥٤٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨



أفكار في التنمية السياسية

تأليف: د. يوسف بن عثمان بن حزيم

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



المحتويات

الإهـــــداء

إلى النموذج الذي أسعى إليه:

أ.د. رضوان بن نايف السيد

إلى الصديق العزيز:

عبدالوهاب بن محمد الفايز

المقدمـــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. وبعد:

تخرجت من جامعة الملك سعود قسم العلوم السياسية عام ١٤٠٧هـ وقد درسني مادة التنمية السياسية د. عثمان بن ياسين الرواف، و د. صالح المانع، و د. محمد الحلوة، وهذا آخر عهدي بالموضوع.

ثم في فترة لاحقة وبعد انشغالي لأكثر من عشرين سنة في الشأن العام أي العمل الخيري والخدمة المدنية فضلاً عن إنكبابي على القراءة بشكل مكثف بعلم الاجتماع السياسي متأثراً بفكر ومدرسة ابن خلدون، تلك المدرسة التحليلية التاريخية التي انطلقت من جذورنا العربية والإسلامية، ومحاكاة واقعنا السعودي بشكل كبير؛ نظراً لأن وطننا شديد الصلة بالماضي سواء بموروث شبه الجزيرة العربية ومنطقة نجد بالتحديد، أو موروث الدعوة الإسلامية السلفية للإمام محمد بن عبدالوهاب، أضف إلى هذا وذاك اكتشاف النفط وأثره الكبير في التحديث والتنمية الاقتصادية والصناعية، وأثره على الثقافة السعودية.

ﰲ ظني أنه وحتى نهاية عهد الملك عبدالعزيز ابن سعود –رحمه الله– لم تعش المملكة العربية السعودية ذلك التباين الثقافي نظراً لتماسك مكونات وأطراف المجتمع التقليدي، فضلاً أن آثار فعل التحديث لم تظهر مع غياب ثورة الإتصالات المقروءة والمسموعة والمكتوبة والمرئية التي لم تستورد آنذاك، بينما ظهر ذلك التباين بوضوح بعد عام ١٩٧٥م بارتفاع أسعار النفط ارتفاعاً كبيراً، وقامت الدولة ببناء البنية التحتية ﰲ النقل والمواصلات والتعليم والصحة والصناعة والزراعة وغيرها، تسلل معها الليبرالية التي غدا لها حضور ثقافي ﰲ الوعي النخبوي أو اللاوعي الاجتماعي العام، وهي ضريبة لابد من أن يدفعها أي مستهلك لمنتجات الحضارة الغربية.

غير خاف أيضاً أن الثورة الناصرية عام ١٩٥٢م وهزيمتها عام ١٩٦٧م، وخسارة ما تبقى من فلسطين واحتلال الجولان وسيناء، ثم انتصار عام ١٩٧٣م وبدء المد الإسلامي السني «الصحوة»، وقيام الثورة ﰲ إيران عام ١٩٧٩م، ثم انهيار أسعار النفط عام ١٩٨٥م واحتلال الكويت عام ١٩٩٠م، والاستعانة بالتحالف الدولي لطرد صدام حسين وضرب برج التجارة العالمي عام

٢٠٠١م واحتلال العراق عام ٢٠٠٥م وبروز إيران كقوة إقليمية عام ٢٠٠٦م وبروز حزب الله كذراع ونموذج دعائي دعوي كل تلك العوامل يبدو أنها زادت من حجم التباين الثقافي.

لقد راقبت المشهد منذ عام ١٩٥٠م وحتى يومنا هذا فكان الوطن بحاجة إلى مشروع جديد يعاد فيه صياغة مستقبلنا السياسي بناء على تلك المعطيات التي أثرت حتماً على بنية العقل السعودي، والمدخل الصحيح هو تنمية سياسية يشارك العقلاء في إعدادها بالاختيار الأفضل، فلن نكون ليبراليين أو يساريين البتة مهما كان بريق جوهر تلك الأفكار التي نجحت نظرياتها السياسية في تطوير وتحديث وتنمية تلك المجتمعات التي نشأت فيها، والتي يمكن الاستفادة منها جزئياً أو أدواتها الموضوعية والحيادية فيما لا يمكن الوقوف أو الاستمرار على فلسفتنا التقليدية السابقة التي حققت التوحيد والبناء في الدولة السعودية الأولى والثانية وبداية الثالثة، فهي اليوم بحاجة أن تسلّم وبإلحاح لطرح جديد يوائم بين الثوابت والمتحرك الإنساني، محققة قدر الإمكان، وفي الوسط تطلعات الدولة والنخب السياسية والثقافية ومستجيباً للتحديات الاقتصادية للشريحة الكبيرة والكبيرة جداً من المجتمع السعودي وإشباع تطلعاتهم.

الكتاب هو عودة أخرى، قادني لها كما أسلفت التعليم السابق والقراءة المركزة، والتجربة المدنية والرقابة وحس الضمير الإيجابي النابع من مواطنة جادة وصادقة أعبر فيها عن انتمائي متفائلاً بمستقبل واعد لنا وللعالمين العربي والإسلامي، كيف لا والتاريخ قد بدأ من هنا.

إن اللوم وإلقاء التهم وصناعة الشؤم هي وظيفة البطالين قليلي العطاء غشيمي البناء؛ يصرخون ليل نهار في غرف مغلقة لا يدري عنهم أحد.. الجميع مدعوون لحفلة الانتصار لأن استجابتنا لنداء خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز صاحب المشروع التنويري في التوقيت الحاسم للمشاركة مؤذناً بتحولنا كمجتمع من مجتمع رعوي تقوم الدولة بكل شي إلى مجتمع يدرك مسؤولياته، ويساهم في صناعة المستقبل والبذل والعطاء والتضحية والتميز، خاصة من أولئك القادرين على ذلك وهم غالب الطبقة الوسطى.

أما عن تعريف التنمية السياسية فيقول د.عارف نصر: "قدّم (لوسيان باي) أفضل تعريف للتنمية، حيث حددها بأنها:

عملية تغيير اجتماعي متعدد الجوانب غايته الوصول إلى مستوى الدول الصناعية. فالتنمية السياسية عند باي هي مقدمة التنمية الاقتصادية، وهي نمط لسياسات المجتمعات الصناعية، وهي تحديث سياسي، وهي تنظيم للدولة القومية، وهي تنمية إدارية وقانونية، وهي تعبئة ومشاركة جماهيرية، وهي بناء للديمقراطية، وهي استقرار وتغير منتظم، وهي جانب من الجوانب المتعددة لعملية التغيير، وهي إقامة المؤسسات وتحقيق الأهداف العامة. أما جيمس كولمان فإنه يقدم منظورات ثلاثة لتحديد معنى التنمية؛ **أولها**: المنظور التاريخي، والذي يرى أن عملية التنمية عملية تاريخية، يمكن التوصل إلى مراحلها وخطواتها عن طريق تتبع تاريخ المجتمع الأوروبي. **وثانيها**: المنظور النمطي، وينظر إلى التنمية في ضوء الثنائيات : التقليدية في مقابل الحداثة، والصناعة في مقابل الزراعة. وثالثهما: المنظور التطوري، وينظر إلى التنمية على أنها عملية دائمة بدون نهاية يمثل المجتمع الأوروبي قمة تطورها. ويرى صمويل هانتجتون أن النمو السياسي هدفه الاستقرار وهذا لا يأتي إلا أثناء

ازدياد تأسيس المنظمات والاجراءات السياسية، ولقياس هذا التأسيس يعرض هانتجتون أربعة أزواج من المعايير: المرونة في مقابل الجمود، التعقد في مقابل البساطة، الاستقلال الذاتي في مقابل التبعية، الائتلاف مقابل الفرقة. وطبقا لباكنهام فإن التنمية السياسية ترادف الديمقراطية والتحديث السياسي.

وخلاصة القول فإن جوهر مفهوم التنمية السياسية يتمركز حول "تزايد معدلات التباين والتخصص في الأبنية السياسية وتزايد علمانية الثقافة السياسية" من خلال إيجاد نظم تعددية على شاكلة النظم الأوروبية تحقق النمو الاقتصادي والمشاركة الانتخابية والمنافسة السياسية، وترسخ مفاهيم الوطنية والسيادة والولاء للدولة القومية. أي أن غاية هذا المفهوم إيجاد نظم تتبنى قيم النظم الأوروبية وأهدافها ووسائلها ومؤسساتها وتسعى للوصول إلى نمط من التنظيم قريب منها".

إن تعريف التنمية السياسية علم خضع لفلسفة العالم الأوروبي ورؤيته للحياة والكون من خلال العقيدة السلوكية "الليبرالية" أو العقيدة الصراعية "الماركسية" يقول د. جلال أمين : "أن أخطر مظاهر التبعية في الدراسات الاجتماعية ميل كتّابنا وعلمائنا

إلى قبول المقولات الاجتماعية التي نشأت وتطورت في المجتمعات الصناعية دون التنبه إلى ما تقوم عليه من مسلمات تشكلت في ظروف تاريخية وحضارية مختلفة تماما عن ظروفنا ومن ثم لم يكن هناك سبب لقبولنا نحن لها أيضا باعتبارها مسلمات " لاشك أني متأثرٌ في طرحي للأفكار في التنمية السياسية بإيماني بقضية التوحيد "الإسلام" والنبوّة "الشريعة" وكذلك احترام قواميس العقل والتجربة الإنسانية والمعرفة الحضارية العربية وعلى رأسها المفكر ابن خلدون بنظريته الاستخلاف والعمران وكلها قادتني إلى طرح أسئلة كبيرة.

الكتاب.. سأتناول فيه محاور؛ كل محور به مجموعة من الأفكار والأجوبة التي أسلم بأنها ليست بالضرورة مكتملة، وإنما قد تشير أو تلفت العناية لدى أي سعودي آخر، هكذا يكون التثاقف حتى نصل بجهود التنمية السياسية التي يعمل عليها المطبخ الملكي السعودي الآن.

إنه المطبخ الذي يعد المشروع الوطني الجديد، وسيقدم الوجبات التي تشبع الجميع، وسيجيب على استفسارات عدة في وحدة فكرية متماسكة باتجاه السعودية الجديدة.. وبالله التوفيق.



أولاً: الرؤيـــــة

أولاً: الرؤيـــــة

مــن نحــــن

سؤال طرحته على نفسي ابتداءً: من نحن؟ ونحن ليس نحن الجسد، بل نحن الروح، فإن كل مجتمع له روح ومن هذه الروح تنبثق نظمها ومنها النظام السياسي، هذا النظام يتعرض للحرب العسكرية استثناءً والحرب النفسية دائماً، إما من حركات معارضة، ثم عنف داخلي أو الغزو الخارجي بشقيه الدعائي والمسلح.

يُعرّف د. جوستاف لوبون روح الأمم في كتابه «سر تطور الأمم» بقوله: «.. والصفات الأدبية والعقلية التي تتكون من مجموعها روح الأمة؛ هي خلاصة ماضيها وميراث أجدادها وعلة حركتها التي تسير عليها. وقد يظهر أن تلك الصفات مختلفة اختلافاً كبيراً في أفراد الأمة الواحدة، إلا أن الاستقراء يؤيد أن غالب أفراد تلك الأمة مشتركون في صفات نفسية عامة وثابتة ثبات صفاتهم الجسمية التي يمتاز بها نوعهم عن نوع أفراد أمة أخرى. والصفات النفسية كالصفات الجسمانية تتجدد مع النسل تجدداً منتظماً ومستمراً».

ومن مجموعة الصفات النفسية التي يشترك فيها أفراد كل أمة تتكون الصفة العامة التي يعبّر عنها بخلق كل الأمة أو الخلق الملّي. فإذا أخذنا ألف إنجليزي أو ألف فرنساوي أو ألف صيني حيثما وجدناهم شاهدنا بينهم اختلافاً كبيراً، لكن أفراد كل جماعة يشتركون مع بعضهم في صفات عامة بمقتضى النسل الملي الخاص بهم.

ولوحدة المزاج العقلي عند جمهور كل أمة؛ أسباب بسيطة معروفة في علم وظائف الأعضاء، فالواقع أن كل فرد ليس ثمرة والديه وحدهما فحسب.. بل هو ثمرة أمته.. أعني سلسلة أجداده.

وإذا أردنا أن نعبّر عن العوامل التي يخضع الإنسان لها في حركته تعبيراً بسيطاً قلنا إنها ثلاثة أنواع: أولها وأشدها تأثيرا عامل الأجداد، والثاني تأثير الوالدين، والثالث تأثير البيئة.. وعلى ذلك فالرجل ابن أمته دائما مهما كان عمله، ومجموع الأفكار والمشاعر التي يأتي بها أفراد كل أمة يوم يولدون هي روح تلك الأمة وهي خفية في ماهيتها، لكنها ظاهرة ظهوراً كلياً في آثارها؛ لأنها هي الحاكمة في الحقيقة على تطور الأمة.

كما يُعرّف د. عدنان الأمين «روح الأمة» عند لنتون في كتابه «التنشئة الاجتماعية وتكوين الطباع»: يعتبر لنتون R.linton أن الثقافة تمثل «روح المجتمع» والأساس الذي يجمع أفراده ويجعلهم يعيشون معاً.

نستدل على الثقافة بسهولة إذا زرنا مجتمعاً مختلفاً عن مجتمعنا والعائد من الزيارة يجد نفسه مدفوعاً إلى إخبار أصحابه عن ذلك المجتمع: اللبس، الأكل وطريقة تناوله، كيف يستقبلون ضيوفهم؟ كيف يبنون مساكنهم؟، كيف يتنقلون؟، ما المسموح وما المرفوض عندهم؟، ما هي لغتهم؟ وما هي العلاقات الاجتماعية بين الكبار والصغار وبين الجنسين وعلاقات السلطة؟.. هذه السمات المشتركة يسميها لنتون: «الكليات»، ولكن الزائر يحتاج إلى وقت أطول لكي يكتشف نوعين آخرين من سمات الثقافة: أحدهما يتعلق «بالتخصصات»، والآخر يتعلق «بالثقافات الفرعية».

التخصصات هي: «العناصر الثقافية التي تشترك بها شريحة أو جماعة معينة في المجتمع دون سائر السكان، لكنها وثيقة الصلة بسائر السكان، وهذا ينطبق على المجموعات المهنية وعلى الجنسين وعلى كل مجموعة تتخصص طبقاً لتقسيم العمل في المجتمع».

إن الروح السعودية مصدرهــا ميراث النبوة منذ ألف وأربعمائة عــام.. ثـم الدعـوة الإصلاحيــة للإمــام المجـدد محمـد بـن عبدالوهاب قبــل ثلاثمائة عام، ويمكنك الإطلاع على تفاصيلها بمقالتــي: «السلفية بيتنا» ومن مصادرهــا التراث القومي لعرب الجزيرة منذ خمسة آلاف عام، ويمكنك الإطلاع على شيء منها بمقالتــي: «اليمن وعمقنا القومي»، فضلاً عن مصادر أخرى من تقاليد وأعراف وسلــوم وسلوكيات بدوية «الصحراء»، وحضرية «مدن الواحات»، «موانئ البحار»، ووحدة وطنية ذات أفق منفتح، وتجربة تحديثية واسعة تمت بعد اكتشاف النفط وصعود أسعاره بقــوة عــام ١٩٧٣م، وشيــوع العلــم والمعرفة. لقد وجـدت وصفاً عقلانيــاً محايداً لروحنــا السعودية عند عــالم التجديد العربي الأستــاذ عبدالرحمن الكواكبي صاحب كتاب «طبائع الاستبداد» ووافقــه عالم التجديد السلفي الإمــام رشيد رضا بمجلة «المنار» ولخصهــا عالمنا الفذ بكر أبــو زيد –رحمه الله– عضو هيئة كبار العلماء في كتابه جزيرة العرب بقوله:

- الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي.
- الجزيرة فيها الكعبة المعظّمة.
- الجزيرة فيها المسجد النبوي، وفيه الروضة المطهرة.
- الجزيــرة أنسب المواقع لأن تكون مركــزاً للسياسة الدّينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً وأقصى إفريقيا غرباً.

- الجزيــرة أسلم الأقاليــم من الأخلاط الجنسيــة، وأديانا ومذاهب.
- الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.
- الجزيرة أفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرارٍ لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعي.
- عــرب الجزيرة هــم مؤسســو الجامعــة الإسلامية لظهور الدين فيهم.
- عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين.
- عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين لأنهم أعرقهم فيه، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان.
- عــرب الجزيرة أكــثر المسلمين حرصاً علــى حفظ الدين، وتأييــده، والفخــار بــه خصوصــاً والعصبيــة النبويــة لم تــزل قائمة بــين أظهرهم في الحجــاز، واليمــن، وعمان، وحضرموت، والعراق، وإفريقية.
- عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفاً، سلفياً، بعيداً عن التشدد والتشويش.
- عرب الجزيــرة أقوى المسلمين عصبيــةً، وأشدهم أنفةً لما فيهم من خصائص بدوية.
- عــرب الجزيــرة أمراؤهــم جامعــون بــين شــرف الآبــاء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم.

- عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنية مهذبة بدليل: سمو لغتهم وحكمتهم وأدبياتهم.
- عــرب الجزيرة أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهــم، وأنشطتهم على التغـرب والسياحات؛ وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله.
- عرب الجزيرة أحفظ الأقـوام على جنسيتهم، وعاداتهم، فهم يخالطون ولا يختلطون.
- عــرب الجزيــرة أحرصــ الأمم الإسلاميــة علــى الحرية والاستقلال وإباء الضيم.
- العــرب عموما لغتهــم أغنى لغــات المسلمــين في المعارف، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.
- العــرب لغتهم هي اللغة العمومية بــين كافة المسلمين وغير المسلمين.
- العــرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوي الحقوق، وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية.
- العرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية.
- العرب أهدى الأمم لأصول المعيشة.
- العــرب مــن أحرصــ الأمم علــى احــترام العهــود عــزة، واحــترام الذمــة إنسانية، واحترام الجــوار شهامة، وبذل المعروف مروءة.

- العــرب أنسب الأقوام لأن يكونــوا مرجعاً في الدين، وقدوة للمسلمــين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداءً فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً.

قد يخرج أحدهم ويقول: إن عبدالرحمن الكواكبي مات في بداية القرن التاسع عشر وهو يتحدث عن فترة ماضية، وقد تغيرت روح الأمة بسبب فورة النفط ما أصبحت الجزيرة العربية مركز استقطاب للقوى العالمية، وظهور أفكار متطرفة إفراطاً أو تفريطاً كالقومية اليسارية في الستينيات الميلادية وتيار التغريب في الثمانينيات الميلادية أو الخوارج الجدد «الإرهاب» في التسعينيات الميلادية، وهو في رأيه أنها تغيرات سياسية واجتماعية كبرى غيرت مسار الروح. إن هذا هو الخطأ الفادح لقارئ السياسة والاجتماع حينما يقتطع جزءاً معيناً من التاريخ، ويستخلص النتائج، وذلك ما تفعله مدرسة الولايات المتحدة الأمريكية السياسية والمتأثرين بمناهجها، وقد فشلت فشلاً ذريعاً في العراق وأفغانستان وقبله فيتنام فانشغلوا بقراءة التفاصيل والتنصت باستخدام التقنية، ولك أن تطلع على وثائق ويكليكس، بينما نجد أن مدرسة بريطانيا العظمى السياسية قد نجحت في السيطرة السياسية والاقتصادية لأكثر من ثلاثمائة عام في بعض مستعمراتها؛ ذلك لأنهم يقرؤون أرواح الأمم خلال

حقب زمنية طويلة من خلال علماء الآثار والاجتماع السياسي وأدباء اللغة؛ ما شكل حركة ثقافية وسياسية سمّيت بالاستشراق.

الشاهد.. إن روحنا السعودية ضاربة أطنابها في عقولنا وفي اللاشعور تحديداً وهي راسخة وعميقة وناجحة في الحفاظ على ذاتها وإدخال البدائل، ثم النمو وقد تعرضت لامتحانات تاريخية واجتازتها، منها ما هو إفراط داخلي كخروج الإخوان في السبله، ورفض الوسائل الحديثة كالبرقية وغيرها، أو مقاومة تعليم البنات أو بث التلفزيون، أو حركة جهيمان أو التطرف أو الخوارج الجدد «الإرهاب »، وأسمّي هؤلاء ببدائل الرفض المطلق، ومنها ما هو داخلي تفريطا كالحداثة والتغريب «الليبرالية »، وأسمّي هؤلاء ببدائل القبول المطلق.

إن الروح السعودية ليست منبتة عن حركة العالم الذي فيه الغث والسمين، والروح ونظامه السياسي قادر على استيعاب الحديث، فالرفض المطلق كانت لنا تجربة معه، والقبول المطلق كانت لنا تجربة معه، وانتصرت الروح ونظامها السياسي نحو الاعتدال، وآمل ألا ننزعج كثيراً ونفتعل معارك مع ممارسات فردية فريدة أو بدائل كعناصر ثقافية جديدة، وإذا أردت التأثير فعليك تعزيز الروح السعودية ونظامها السياسي، واحذر أن تمارس الوصاية

وكن بديلاً نافعاً بتجديد تلك الروح فقط، ومن شذ سيكتشف أنه يقود نفسه وجماعة قليلة من الشذاذ في لحظة زمنية محددة، وعليك بالجماعة يقول لينتون: «ثمة نوعان آخران من عناصر الثقافة، هما: «البدائل ««والميزات الفردية «فالأخيرة هي عناصر تتعلق بالأفراد ليست مشتركة، وبالتالي لا تعتبر فئة من فئات الثقافة، لكن ذكرها ضروري لفهم فئة البدائل فالبدائل تضم العناصر الجديدة المطروحة ضد عناصر قديمة، ويجري تبنيها عن طريق الاختيار الحر فيبدأ الأمر بعنصر جديد (فكرة، أداة، قيمة، سلوك، وسيلة نقل، تكنولوجيا... الخ) يحمله الفرد (ميزات فردية) ولقي استحساناً من قبل أفراد آخرين فيشاركونه فيه.

هذه المشاركة إذا توسعت تخرج العنصر الجديد من الميزات الفردية، وتخرج العنصر القديم والجديد إلى منطقة أو فئة البدائل إذا ظلت قوة العنصرين متعادلة يتبعان في فئة البدائل، أما إذا كان العنصر الجديد أقوى من العنصر القديم، حيث تمكّن من اكتساب مشاركة عامة، فإنه ينتقل إلى فئة الكليات، فيما يسقط العنصر القديم إلى فئة الميزات الفردية، أي يصبح نادر الانتشار».

إن الروح السعودية كما رأيت شكَّلها الدين والعرق والجغرافيا والتاريخ والتجربة، فانبثقت نظمها وأخلاقها وعلينا قراءة بنيتها «الروح»؛ كي نفهم عقلها السياسي وأخلاقها المعاشة، وكيف تتفاعل مع حركة التاريخ فتصنع النمو والاعتدال.

نظامنا السياسي

(١)

قلت: إن روح الأمم هي الصفات الأدبية والعقلية التي تتكون من مجموعها روح الأمة، وهي خلاصة ماضيها وميراث أجدادها وعلة حركتها التي تسير عليها. كما أن الروح السعودية شكّلها ميراث النبوة والعروبة وتقاليد وسلوم وسلوكيات بدوية «الصحراء» وحضرية «مدن الواحات» «موانئ البحار»، ودعوة إصلاحية ووحدة وطنية منذ ثلاثمائة عام وتجربة تحديثية ذات أفق منفتح.

إن تلك الروح عميقة فتختار البدائل الوسطية فتجدد ذاتها فتستفيد، ثم ترفض بدائل القبول المطلق أو بدائل الرفض المطلق، ومن الروح تنبثق النظم والأخلاق، ومنها النظام السياسي ومن الأخلاق الفضيلة السياسية لقادتها ونبلائها التي سوف أتحدث عنها في مقالتي التالية، أما النظام السياسي فأقصد به النظام الأسمى «الشريعة» ومؤسسات الحكم.

(٢)

نشأت السياسة منذ نشأة الجماعات البشرية الأولى، ثم القرية فالمدينة حين أقام، ثم استوطن ذلك الإنسان رقعة جغرافية محددة بدافع تحقيق إشباع الحاجات الأساسية «الضرورات» من أمن وطعام، ناهيك عن أن الإنسان اجتماعي بطبعه فيتبادل الاتصال والسلع والخدمات، ومن أجل هذا كله ألف التجمع فاحتاج تبعا له إلى التنظيم وتقسيم العمل؛ فكانت السياسة يتولاها رئيس يتمتع بقوة القبول أو القهر.

وتُعرّف السياسة لغة بأنها: القيام على الشيء بما يصلحه والسياسة: فعل السائس.

وتُعرّف السياسة اصطلاحاً: فن ممارسة القيادة والحكم وعلم السلطة أو الدولة.

(٣)

النظام السياسي السعودي انبثق من روح السياسة الشرعية، يقول الدكتور فتز جرالد: «ليس الإسلام دينا فحسب.. ولكن نظام سياسي أيضاً»، وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم

عصريون يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين، فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر».

ويقول الدكتور شاخت: «إن الإسلام يعني أكثر من دين، إنه يمثل نظريات قانونية، وسياسية، وجملة القول: إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً».

ويقول جيب: «إن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل، له أسلوبه المعين في الحكم، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به..».

(٤)

تُعرّف السياسة الشرعية بمفهومها الضيق بأنها: إنفاذ للشريعة الإسلامية بتحكيمها؛ فإن الكثير من الآيات جاءت آمرة بتطبيق أحكامها واتباع ما أمرت به وترك ما نهت عنه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الجاثية آية (١٨)، قال ابن جرير: فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله الذين لا يعرفون الحق من الباطل فتعمل به فتهلك إن عملت به، وهو قول ابن عباس وقتادة.

إن مقتضى التوحيد بإفراد اللّه بالطاعة والخلوص له من الشرك هو تحكيم شريعته لتحقيق علة الخلق، تلك العلة التي قسمت الأمم منذ الميلاد الأول للإنسان بين توحيد ووثنية، يقول أستاذ تاريخ الفلسفة السيد جوستان جاردير: «للديانات الثلاث جذر مشترك؛ فالنص المقدس عند المسلمين هو القرآن، وكذلك العهد القديم مكتوبان بلغتين ساميتين قريبتين، وإحدى الكلمات المستعملة في العهد القديم، للدلالة على «اللّه» ذات جذر لغوي مشترك مع كلمة «اللّه» الإسلامية».

أما ما يتصل بالمسيحية، فإن الأمر أكثر تعقيداً بقليل، ومن المؤكد أن الأصل هنا هو سامٍ أيضاً، لكن العهد القديم ترجم إلى الإغريقية، وهكذا فإن الميثولوجيا «الأساطير والقصص» والمعتقدات الدينية نمت متأثرة باللغتين اليونانية واللاتينية، كما تأثرت لنفس السبب، بفلسفة العهد الهيلينستي (اليوناني المقدوني المتعدد الآلهة والأصنام)، كان الهنود الأوربيون (سكان أوروبا) يؤمنون على ما قلنا بأنواع كثيرة من الآلهة، ومن المدهش أن الساميين عبدوا مبكرين إلهاً واحداً لا أكثر، وهذا يسمى بالديانة التوحيدية أو بديانات التوحيد، وسواءً أكنا في اليهودية أم المسيحية والإسلام، فإن الفكرة الأساسية هي أنه لا يوجد إلا إله واحد.

وسمه أخرى سامية هي أيضاً أن الساميين لهم رؤية خطية للتاريخ، فاللّه خلق العالم ذات يوم، وهذا اليوم هو بداية التاريخ، ولكن سيأتي يوم يصل التاريخ فيه إلى نهايته، وهذا اليوم هو «يوم الحساب الأخير» عندما يعود اللّه يحاكم الأحياء والأموات.

(٥)

أما المعنى العام للسياسة الشرعية فهو ما قاله ابن عقيل الحنبلي: «السياسة: ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي».

فالسياسة بهذا المفهوم هي المصلحة والتي هي مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم؛ فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوّت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة.

والسياسة هنا هي الفضيلة التي تمكّن الحاكم من تدبير أمر الناس، قال عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري في وصف معاوية ابن أبي سفيان رضي اللّه عنه: «إن وجدته ولي الخليفة المظلوم (يقصد عثمان بن عفان رضي اللّه عنه) والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير».

ذهب الحنفية والمالكية والحنابلة إلى أن للسلطان سلوك السياسة في تدبير أمور الناس وتقويم العوج وفق معايير وضوابط، ولا تقف السياسة على ما نطق به الشرع.

وقالت الحنفية: السياسة داخلة تحت قواعد الشرع، وإن لم ينص عليها بخصوصها، فإن مدار الشريعة -بعد قواعد الإيمان- على حسم مواد الفساد لبقاء العالم.

وقال القرافي من المالكية: إن التوسعة على الحكام في الأحكام السياسية ليس مخالفاً للشرع، بل تشهد له الأدلة، وتشهد له القواعد، ومن أهمها كثرة الفساد وانتشاره، والمصلحة المرسلة التي قال بها مالك وجمع من العلماء.

(٦)

نخلص إلى أن النظام السياسي في الإسلام يقوم على مبدأين، هما: سيادة الشريعة الإسلامية فهو الإطار القيمي والفلسفي والأخلاقي للحكام والمحكومين، وهو الحق المطلق الذي يرجعون له عند الفعل أو التخاصم، والمتضمن كافة الحقوق والحريات الأساسية التي يحتاج إليها الإنسان، والمبدأ الثاني هو العدل بإنفاذ المقدس المنصوص عليه أو اجتهاد الحاكم أو من ينيبه باستخدام الأدوات الأصولية في فقه التعزير، أو المصلحة التي

يتوصل لها الحاكم بقوة فضيلته السياسية، وهي النسبة الأغلب من القرارات السياسية للحاكم أو المؤسسات التي ينشئها، ثم ينيبها للممارسة وهي مقصود الشرع.

إن النظام السياسي السعودي يتمثل تلك السياسة وهو النموذج المعاصر للتراث السياسي العربي والإسلامي كامتداد لخبرة دول الإسلام منذ عصر الراشدين وبني أمية والعباسيين.

إن النظام السياسي السعودي يرتكز في ممارسته السياسية على النظام الأساس للحكم، وهو دستور الدولة الذي يتكون من ثلاث وثمانين مادة، وقد جاءت هذه المواد موزعة في تسعة أبواب:

- المبادئ العامة.
- نظام الحكم.
- مقومات المجتمع.
- المبادئ الاقتصادية.
- الحقوق والواجبات.
- سلطات الدولة.
- الشؤون المالية.
- أجهزة الرقابة.

حدد النظام الأساس للحكم في مادته الأولى هوية الدولة السعودية: «دولة عربية إسلامية ذات سيادة تامة دينها الإسلام ودستورها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ».

ثم نصت المادة الثامنة على المبدأ الثاني، وهو: العدل: «يقوم الحكم في المملكة العربية السعودية على أساس العدل والشورى والمساواة وفق الشريعة الإسلامية».

ونصت المادة السادسة والأربعون على «أنه لا سلطان على القضاة في قضائهم لغير سلطان الشريعة الإسلامية»، وجاء في المادة الخامسة والأربعين على «أن مصدر الإفتاء في المملكة العربية السعودية كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ».

إن السلطات «المؤسسات» في النظام السياسي السعودي ثلاث سلطات مرجعها الملك، ففي المادة الرابعة والأربعين «تتكون السلطات في الدولة من: السلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، والسلطة التنظيمية، وتتعاون هذه السلطات في أداء وظائفها وفقاً لهذا النظام وغيره من الأنظمة، والملك هو مرجع هذه السلطات».

إن الملك بفضيلته السياسية وأعوانه وبتلك المؤسسات يسوس الدولة ويقودها ويدبر شأنها بالسياسة الشرعية بمفهوميها الخاص والعام؛ فنصت المادة الخامسة والخمسون على أن «يقوم الملك بسياسة الأمة سياسة شرعية».

الفضيلة السياسية

(١)

قلت: إن الحاكم بفضيلته السياسية وأعوانه من علماء ونبلاء وبالسلطات الثلاث «القضائية والتنفيذية والتنظيمية» يقود ويدبر شأن الدولة بالسياسة الشرعية بمفهومها الخاص؛ وهو إنفاذ الشريعة «القانون الأسمى»، والعام بالتعزير والمصلحة التي هي أغلب قرارات التسيير.

إن قوة النظام السياسي تنبع من قوة فضيلته والعكس صحيح، قال بعض الحكماء: إذا بُني الملك على قواعد العدل، ودُعِّم بدعائم الفضل، وحُصّن بدوام الشكر، وحُرس بأعمال البر، نصر الله مواليه وخذل معاديه، وعضده وسلمه من الغيِر.

(٢)

عرّف المنجد في اللغة والأعلام «الفضيلة» الفضل: جمعه فضول: الإحسان أو الابتداء به بلا علة له، والفضيل جمعه فضلاء: ذو الفضل والفضيلة جمعه فضائل: الدرجة الرفيعة في الفضل، خلاف الرذيلة والنقيصة.

إن الفضيلة السياسية اصطلاحاً: هي القوة والخبرة والدراية والممارسة والحنكة.

فالنظام السياسي في الإسلام اقترب واستقل في آن معاً عن المفهوم المدني الغربي للحكم مستظلاً بنظام رباني قيمي وأخلاقي مرجعي، ومستوعباً القوة البارزة الظاهرة ميدانياً «الفضيلة»، وتحول وتبدل الأمم والمجتمعات بحسب ظرف الزمان والمكان فأعطى هذا النظام هامشاً عقلانياً واسعاً يقدر من خلاله السلطان الأعظم أو الخليفة أو الإمام أو الحاكم المصلحة بحسب الإمكانات المتاحة، وبذا فإن للنظام شقاً ثابتاً وآخر متحركاً بالفضيلة.

إن فقهاء الشريعة يعرّفون الفضيلة عند القادة بالصلاح أو بالقوة، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يقول في كتابه السياسة الشرعية: «فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها؛ فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة قُدّم أنفعهما لتلك الولاية وأقلها ضرراً فيها»؛ لهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال: «إن خالداً سيف سله الله على المشركين» أخرجه أحمد، مع أنه أحياناً كان قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ حتى إنه مرة قام ثم رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» لمّا أرسله إلى بني جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من كان معه من الصحابة حتى آواهم

النبي ﷺ وضمن أموالهم، ومع هذا ما زال يقدمه في إمارة الحرب، لأنه كان أصلح من هذا الباب من غيره وفعل ما فعل بنوع تأويل.

وكان أبو ذر رضي الله عنه أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا فقد قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي؛ لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم» أخرجه مسلم، ونهى النبي ﷺ أبا ذر عن الإمارة والولاية لأنه رآه ضعيفاً مع أنه قد روي: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر» أخرجه الترمذي.

(٣)

إن النظام السياسي أولى الاستعدادات الفطرية للقادة وإرث الحكم والممارسة والخبرة والحنكة السياسية اعتباراً كما أسلفت والنص الديني المقدس (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة) لا يكفيان لإقامة دولة الإسلام. قال ﷺ: «الناس تبعاً لقريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم» أخرجه مسلم. والتبعية «الغلبة والعصبية» نشأت من الفضيلة السياسية لقريش في ذلك الوقت، وهذا ما يسميه الفارابي بالتجريبية حيث يقول: إن المهنة الملكية الفاضلة

تلتئم بقوتين: إحداهما القوة على القوانين الكلية (الشريعة)، والأخرى القوة التي يستفيدها الإنسان بقوى مزاولة الأعمال المدنية وبممارسة الأفعال في الآحاد والأشخاص، فإن الطبيب إنما يصير معالجاً كاملاً بقوتين: الأولى التي استفادها من كتب الطب، والأخرى بالقوة التي تحصل له بقوى التجربة والمشاهدة لأبدان الأشخاص، كذلك المهنة الملكية إنما يمكنها أن تقدّر الأفعال بحسب عارض عارض، وحال حال، ومدينة مدينة، في وقت وقت وهي التجريبية، ويقول الدكتور الكبسي في كتابه «نشأة الفكر السياسي عند العرب»: «.. فقد دفعت ضرورات تأسيس الخلافة إلى توظيف مالكي هذه الخبرة لتوطيد الحكم.

فكانت كفاءة إدارية –على حد وصف المقريزي– هي العامل الذي يستند إليه الرمز (قائد التيار) في هذا الزمن الجديد، فقد احتج معاوية على الذين طعنوا عثمان رضي الله عنه وعلى عماله، بأن الرسول ﷺ انتدبه لكفاءته وخبرته قائلاً لهم: «إني مصير عليكم إن رسول الله ﷺ كان معصوماً فولاني، ثم استخلف عمر فولاني، ثم عثمان فولاني، فلم آل لأحد منهم ولم يولني إلا وهو راضٍ عني، وإنما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والفناء ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها، وإن الله ذو سطوات بمن يمكر به

فلا تعرضوا للأمر وأنتم تعلنون من أنفسكم غير ما تظهرون.

ويقول معاوية للحسن بن علي رضي الله عنهما: «ولو علمت أنك أضبط مني للرعية، وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الأموال، وأكبر للعدو، لأجبتك إلى ما تدعونني إليه». يدل هذا الجواب على أن المشكلة ليست مشكلة «قرابة» بل مشكلة «دراية» ومقدرة على إدارة شؤون الناس. وهذه الأخيرة لا تخضع إلا لمن يملك خبرة وكفاءة كافيتين. إن معاوية رضي الله عنه لا يخضع القضية بينه وبين الحسن إلى القرابة بل إلى مبدأ الكفاءة الذي يندرج في إطار التحول والتطور الذي عرفه المجتمع السياسي وقواه، حيث تصبح الكفاءة أقوة قوة وفعالية من العدد والعدّة، لأنها تصبح قدرة، والقدرة ليست عصبية، بل إمرة متأتية من الخبرة والممارسة اليومية لشؤون الناس، فيمكننا القول: إن فشل ابن الزبير وقبله الحسين بن علي بن أبي طالب كان - رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً - نتيجة انعدام هذه الصنعة لديهما».

(٤)

إن النظام السياسي السعودي يستمد فضيلته من تجربة ممارسة الحكم لأكثر من ٦٠٠ عام منذ أن عاد جدهم مانع عام ٨٥٠ هـ وهم يتوارثون تجربة الخطأ والصواب والدراية والكفاءة والحنكة عند تبدل الأحوال، ورأس الفضيلة السياسية للدولة السعودية المعاصرة هو الملك الموحد عبدالعزيز بن عبدالرحمن -رحمه الله- الذي سجلت مبادئ تدبيره في كتابي «خمسة عشر مبدأ للقيادة عند الملك عبدالعزيز» ومنها:

يملك «فكرة» خلق منها «رؤية»:

الفكرة عند الملك عبدالعزيز استعادة ملك آبائه وأجداده، أي استرجاع حق سلب منه ولماذا هذا حق؟... لأنه يملك الشرعية الدينية، المستمدة من الدعوة الإصلاحية السلفية المبنية على هدي الكتاب والسنة الصحيحة وهو الحاكم المتغلب، ويملك الشرعية السياسية، فقد سبقته دولتان تاريخيتان لآل سعود ثم القبول العام، وذلك لسببين حيث لم ير المواطنون في ظل الدولة السعودية الأولى والثانية إلا الأمن والاستقرار والرخاء والعزة، كما أن هؤلاء قد جربوا من جاء بعدهما فعرفوا قدرهما.

عاد الملك عبدالعزيز إلى الرياض وهو يعلم تربيةً أنه لا خير في حكم يقوم على الباطل، يقول الله عز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٥٠)﴾ سورة المائدة، عاد والدعوة مر عليها أكثر من مئة وخمسين عاماً قد تأصلت تلك الدعوة اجتماعياً في قلوب الناس.. عاد وهو يعلم أنه لن يصلح آخر هذا الوطن إلا بما صلح أوله.

ولكن هذه المرة استعاد قراءة الدعوة مرتين: إحداهما الأخطاء التاريخية التي وقعت في ممارستها، والثانية في قدرتها نحو بناء مجتمع مدني يتناغم مع تطورات العصر الحديث ويكفل الاستقرار والعمران الطويل.

لذا فإن القائد أعاد تأكيد الهوية والرسالة، مع ندية علمية وفهم دقيق لفقه المصالح والمفاسد، وتبيين أحياناً لدور الملك عن دور العالم والفقيه، والمبادرة في حفظ دائرة الاختصاص السياسي.

اختيار الرجال:

اختار الملك عبدالعزيز رجاله في الحرب من العصبة المقربين المخلصين من أمثال آل جلوي، وآل بيته، ورجال القبائل ذوي الشجاعة والإقدام فحفظ رؤوسهم وجل كبيرهم وقدر تسلسلهم القبلي الهرمي، بالإضافة إلى الحاضرة ممن ملك هذه وتلك،

أما في السلم حيث العمران والبناء فكانت الانتماء والولاء والكفاءة، والانتماء يعني أنك تحب الملك عبدالعزيز، والكفاءة هي المهارة، ولذلك كان القصر الملكي (بيت الحكم) أصبح أمماً متحدة مصغرة يجمعهم الرأي والعقل والحكمة والمهارة. مشغول بهمّ النجاح وقد وهبوا حياتهم لابن سعود، فقد بلغ عدد المستشارين في الديوان السياسي للملك ثمانية وعشرين مستشاراً من سعوديين ولاجئين سياسيين.

فهم البيئة الدولية:

عاش الملك عبدالعزيز جزءاً من شبابه في الكويت، وتعرّف على صراع القوى العظمى بين بريطانيا وألمانيا وتركيا، وكذلك التجربة المدنية المتقدمة بالبحرين وبدء الحضور السياسي الأمريكي فيها، إن السفر والتجوال غالباً ما يكون الخير فيه.

إن الملك عبدالعزيز كان يتعلم وفي ذهنه حلم وفكرة العودة، ولذا فإن المعايشة كانت تختلف عن أي عائش آخر؛ فنجد شدة الإنصات والتأمل والتحليل وطرح الأسئلة والمقارنة بين الأخبار القادمة من نجد، وماذا يحدث مع القوى الإقليمية والعظمى، ولذا كان التحرك ذكياً في الزمان والمكان وذكياً في فهم العلاقات الدولية، وأين يقف؟ وأين يتحرك؟ وكيف يفاوض؟ وكيف ينقل التحالف من مكان إلى آخر؟.

فهم التفاصيل المحلية:

هناك فرق بين أن ترث النجاح أو أن تصنعه، لقد صنع الملك عبدالعزيز التوحيد والصناعة تحتاج إلى دقة، والدقة تحتاج إلى فهم التفاصيل، وقد فهمها القائد على مهل وتؤدة؛ فهو مراقب لسيكولوجية المجتمع البدوي والحضري والمحلي والإقليمي والدولي.. لقد عاش ابن سعود التهجير القسري في الصحراء والبحر وخلق عنده وعياً بالتفاصيل وكان ذخيرة الإدارة المحلية وحسن الاتصال والتأثير بالناس، فهو يعرف ردة الفعل وطريقة التفكير بمجرد أن يعرف من أين أنت...

الشخصية المهمة:

تُعرّف الكاريزما بأنها: الشخصية المؤثرة والجاذبة، وإذا كان هناك شيء بارز في الملك عبدالعزيز كالشمس في رابعة النهار فهي «الهيبة». الهيبة القائمة من الجسم ذي الطول الفارع، والعريض المنكبين، والعيون الحادة النظر، وإدامة الصمت مع طرح الأسئلة كأنما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.. إنها هيبة الإيمان بالله ثم بقضيته العادلة التي يرى فيها خيره وخير الجزيرة العربية.. إنها هيبة العلم بما يحدث في العالم فهو متفوق على غيره بالمعلومات، وفريق عمل ومستشارين عالي الجودة والإخلاص.

إنها الهيبة الرمزية حيث الموكب المهيب والبيرق والخويا والثقة المفرطة بالله ثم بالنفس والأتباع.. إنها إرادة الحياة بطريقة خاصة.

الاستقامة:

يقول النبي الأمي محمد بن عبدالله ﷺ حينما جاءه رجل يطلب النصيحة قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم» صحيح ابن حبان.

إن استقامة الملك تعني حسن السيرة بعد الإيمان بالتوحيد التي هي دعواه أصلاً، والاستقامة تعبير (سلوك) لصحة الدعوة، فالبعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير.

إن الملك عبدالعزيز يعلم أنه في مجتمع يشكل لهم زعامة دينية وليست زعامة سياسية فحسب، ولذلك هم يرقبون تفاصيل حياته لأن حياتهم هي حياة الملك عبدالعزيز وهو الظاهرة والمستقبل في آن معاً، بل شعورهم تحول إلى أسطورة.

قديماً كان المجتمع النجدي لا يفرق أحياناً بين الفروع والأصول، فطول الثوب أو قصره يعني الشيء الكثير، لذلك كان الملك عبدالعزيز صارماً في حياته الشخصية من الصلاة والصوم

وقراءة القرآن وطلب العلم.

يقول القائد البريطاني مونتجمري Montgomery: «هل الحياة الخاصة للقائد أحد أسباب نفوذه ونجاحه؟» ويرد على تساؤله: «في رأيي الخاص في هذه القضية بعينها، بل جميع القضايا الأخرى، أن العامل الأكبر هو إخلاص المرء ونفوذه وكونه قدوة، وخاصة فيما يتعلق بالفضائل الدينية ولا يهم أن يكون من الطبقة العليا أو السفلى في مجتمعنا... إنني لا أدري كيف يستطيع امرؤ أن يكون قائداً، إن لم تكن حياته الخاصة فوق الشبهات؛ فإن لم تكن حياته الخاصة فوق الشبهات، فلا يحترمه الذين يقودهم، ويسحبون ثقتهم منه، وإذا ما حدث ذلك، فستفقد قيادته تأثيرها».

قال الإمام الجويني عند ذكر صفات من يستوزره الإمام: «ثم الإمام لا يستوزر إلا شهماً، كافياً، ذا نجدة وكفاية، ودراية ونفاذ رأي، واتقاد قريحة، وذكاء وفطنة، ولا بد أن يكون متلفعاً من جلابيب الديانة بأسبغها وأضفاها، راقياً من أطواد المعالي إلى ذراها، فإنه متصد لأمر عظيم وخطب جسيم، والاستعداد للمراتب على قدر أخطار المناصب.

الاحتواء:

تتمثل في قدرتك على استقطاب وتأليف قلوب أعدائك أو مخالفيك؛ إما بتحييدهم وكف شرهم أو نقلهم إلى صفك، والأخيرة صعبة جداً ولا يستطيعها إلا الأشخاص ذوو الهمة العالية والمرونة الكبيرة، وحلم شديد طاردة الحقد والكراهية أن تتمكن من قبلها، مع سماحة وحب الخير للصديق والعدو. بمعنى آخر أن تكون نفساً كبيرة.

الوفاء للتاريخ:

أن تكون قائداً سياسياً، يعني أنك قارئ جيد للتاريخ، محترمٌ سننه، مجالسٌ خبراءه، تقيس الحاضر على الماضي لأن التاريخ غالباً ما يعيد نفسه. لذا فإن الملك عبدالعزيز مستوعب ما جرى في الماضي، ولهذا تجده وفياً مع أشخاصه محترفاً في التعاطي مع الجغرافية السياسية.

إنك حين تعلم أن القائد وفي وأنت أحد الأتباع، فإنك سوف تعمل بإخلاص لأن الانقلاب والغدر هما سمة الساسة الطارئين، أما الأوفياء وتجدها عادة في الملوك، لأنهم يتطلعون للمستقبل وتوريث السلطة فهم حريصون على التمهيد الدائم للقادم التالي.

الزهد زهدان:

الزهد زهدان فالأول زهد اضطرار، والثاني زهد اختيار، وكل واحد منهما هو خير.

أن تكون زاهداً وأنك للتو أحدثت توحيداً لجزيرة العرب في ظرف أممي غير موات حيث القوى العظمى (بريطانيا – فرنسا) تسعى إلى التفتيت، ثم تنتمي إليك قبائل وحضر العرب وأعني بالانتماء هو: (الحب) وليس القبول بالأمر الواقع ونفوذ التسليم بالزعامة.

كل ذلك يدفعك دفعاً مهولاً باتجاه رؤية الذات، وافتقاد التوازن، ولكن الملك عبدالعزيز يحتفل بالإنجاز بطريقته الخاصة، حيث مزيد من الثقة، ومزيد من التعزيز بمحبة الناس له، فهو أدرك السعادة وفلسفتها بأنك كي تكون سعيداً فأفضل وسيلة هي أن تدخل السعادة للناس.

لذا كان الملك عبدالعزيز زاهداً بالحقيقة والاختيار، حيث الكنز الحقيقي والاستثمار هو في البشر.

الحرب النفسية

(١)

قلت: إن لكل مجتمع روحاً، ومن هذه الروح تنبثق نظمها ومنها النظام السياسي الذي يرتكز إلى شق ثابت مقدس وهو الشريعة «القانون الأسمى»، الذي يحتكم إليه الجميع حكام ومحكومون، ثم الشق المتغير وهو الفضيلة السياسية النابعة من درايته وخبرته وحكمته في التدبير، وهي تعبّر عن قوة النظام السياسي والعكس صحيح.

إن النظام قد يتعرض للحرب العسكرية استثناءً والحرب النفسية دائماً، إما من حركات معارضة ثم عنف داخلي، وإما الغزو الخارجي بشقيه الدعائي والمسلح.

(٢)

إن هدف الحرب العسكرية هو التدمير المادي، أما هدف الحرب النفسية فهو التدمير المعنوي، وعليه دعني أعرف لك الروح المعنوية قبلاً، حيث يقول غوبون: «إن الروح المعنوية مزيج من الجوانب النفسية العقلانية والانفعالية الشخصية التي تعمل على حفز الفرد للعمل بالتعاون مع أفراد الجماعة التي ينتمي

إليها في سبيل تحقيق أهداف الجماعة، وذلك على اعتبار أنها تسهم في تلبية حاجاته، وتحقق له حالة من الرضا».

فيما يعرفها هاريمان بأنها: «شعور انفعالي حماسي تجاه ما تقدم عليه الجماعة من أعمال، ويرى البعض أنها عوامل التوتر النفسي الناتج من خبرات النجاح أو الفشل، أو الضغوط التي تولّد الحاجة للعمل على مستوى الفرد أو الجماعة».

إن الروح المعنوية هي هدف الحرب النفسية التي يعرفها جون سكوت في كتابه «الحرب السياسية: دليل للتعايش التنافسي»: «إن الهدف الأساسي للحرب السياسية المدمرة هو إضعاف العدو -وإذا أمكن- تدميره بواسطة استخدام المناورات الدبلوماسية، والضغط الاقتصادي والمعلومات -الصحيحة والمكذوبة- والإثارة والتخويف والتخريب والإرهاب، وعزل العدو عن أصدقائه ومؤيديه»، أما بول لينارجر في كتابه «الحرب النفسية» يقول: «إنها استخدام الدعاية ضد العدو من إجراءات عملية وأخرى ذات طبيعة عسكرية، أو اقتصادية أو سياسية مما تتطلبه الدعاية»، ويعرف الدعاية بأنها: «استخدام مخطط لأي شكل من أشكال الإعلام بقصر التأثير في عقول وعواطف مجموعة معادية أو محايدة أو صديقة، وذلك لتحقيق غرض استراتيجي أو تكتيكي معين»، أما لاسويل فيقول: «إن الحرب النفسية اختيار العبارات وترويجها بقصر التأثير على سلوك الجماهير».

(٣)

إن الروح المعنوية للجزيرة العربية هي أكثر الأرواح تعرضاً للحرب النفسية؛ ذلكم أن نيلهم من تلك الروح سوف يؤثر تأثيراً بالغاً لا محالة في العمق الإسلامي والعربي، كما أن هذه الروح هي الباقية على أصالتها التاريخية القومية وجذوتها الإيمانية، وهي محط أنظار وآمال النفوس الأخرى.

إن مصدر الحرب النفسية في منطقة الشرق الأوسط قادم من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وإيران، أو قوى صغيرة تدور في فلكها، فالأولى يدفعها التوحش الرأسمالي، أما الدولتان الثانية والثالثة فيدفعهما الحقد والتعبئة الداخلية والدائمة من خطر الزوال كأقلية، والفلسفة السياسية الاجتماعية قائمة عليها، وإذا زال الخطر المصطنع زال النظام، ولذا تبادران بالهجوم الوقائي دوماً تحت شعار المظلومية. الجدير بالذكر أن التعميم خاطئ بالكلية؛ فلا تزال هناك قوى خيرّة ترغب في التعايش والسلام والاستقرار والنمو والازدهار، كما أنني حينما أقرر ذلك وصفاً فلا يمنع التدبير والدراية من تقرير المصلحة المفضية إلى جلبها.

قال إيزنهاور عام ١٩٥٢م في أحد خطاباته: «يجب أن تكيّف سياستنا الخارجية حتى توائم إستراتيجية الحرب الباردة الموحدة المتماسكة، وفي روحنا وعزيمتنا يجب أن نرى في هذه الحرب الباردة فرصة كي نحصل على نصر دون خسارة في الأرواح كي نفوز في نضال من أجل السلام، فإنه لا فائدة من الانتصار العسكري إذا أدى إلى هزيمة سيكولوجية لنا».

(٤)

إذا هدف الحرب النفسية هو الفكر والعقيدة والشجاعة والثقة، لذا علينا أن نقاوم تلك الحرب؛ إما بشن حرب نفسية مضادة، وإما بتوحيد الجبهة الداخلية أو بكليهما معاً، ويقترح في هذا الشأن ما يلي:

- إنشاء مركز للحرب النفسية عبر تنسيق كافة الإدارات الحكومية العاملة في هذا الحقل نحو توحيد جهودها الفنية، وإعداد الدراسات المشتركة والتدريب وتبادل المعلومات، وتحليلها في إطار استراتيجي أشمل.
- دعم إنشاء كرسي في إحدى الكليات السعودية المتخصصة في العقيدة والعلوم السياسية وعلم النفس والإعلام والاجتماع والاقتصاد، لغرض إعداد الدراسات الأكاديمية ذات الشأن بالفرد والجماعة والمجتمع السعودي، على أن يكون ذا صلة بمركز الحرب النفسية.

- تخصيص ناطق رسمي باسم رئاسة مجلس الوزراء لشرح وترويج القـرارات والسياسات والمواقـف من المستجدات، والمملكـة لديها تجربة رائـدة وناجحـة في وزارة الداخلية حينما خصصت ناطقاً رسمياً باسمها، استطاع مع فريقه الإعلامـي المحترف أن يحظى بمصداقيـة وطنية وشعبية عالية، وقـد أسهم إطلاق قناة «الإخباريـة» حدثاً موازياً؛ تكاملت فيهما قصة التأثير والتفوق على إعلام التطرف.
- نحن بحاجة لمبادرة إبداعية تربوية لتعليم التربية الوطنية عبر زرع التراث والحضارة في قلوب الناشئة؛ عبر مشروع مشترك بين الهيئـة العامة للسياحة والآثار ووزارة التربية والتعليـم، حين تربط الوطنية بالجغرافيا والتاريخ، فضلاً عـن القيم الدينية النبيلة، وربطها بوطن التوحيد والنبوة. لقد قدمـت وزارة التربية والتعليم العـام المنصرم تجربة عملية حيـث طلبـت للاحتفال باليـوم الوطنـي المأكولات التاريخية فاحتفلنا جميعاً في منازلنا.. لقد نجحنا حينما جعلنا الوطن تنوع وثراء.
- تطوير الموقع الإلكتروني للمملكة العربية السعودية باللغات الحيّـة العالميـة، وتكثيف التفاعـل بين المتصفـح والموقع، علـى أن يتـولى الموقـع مؤسسة غير ربحيـة يديرها شباب سعوديـون من الجنسين، يمكّن هؤلاء من إطلاق المبادرات الوطنية والإقليمية والدولية.

- العناية بالرمزية والاحتفال وصناعة الصورة عبر التأكيد على الزيّ الوطني، وإبراز العلم السعودي على جميع المصالح الوطنية والحكومية والخاصة والأهلية، فضلاً عن إطلاق جائزة سنوية تكافأ من خلالها المبادرات والإنجازات الفردية للمواطن المتوسط والبسيط، وإعطاء نموذج حي على دعم تجارب النجاح وتصميمها وصياغتها في قصة بطولة وطنية.
- إظهار القوة وإبراز قياداتنا العسكرية عبر التعبير عن الجاهزية وتمثيل الأدوار «المحاكاة» بالحرب، فلن يكسب السلام والأمن إلا من استعد له، ويأتي دور إدارات التوجيه بأدواتها المختلفة لإكساب الهيبة في الداخل وبث الرعب في الخارج.
- تطوير نظام الاستماع لشكاوى وآراء المواطنين عبر هاتف مجاني أو الفاكس أو البريد أو البريد الإلكتروني من خلال ديوان المظالم كجهة قضائية محايدة، ما يسهم في علاجها إن كانت معتبرة نظاماً، وكذلك تحليل تلك الشكاوى والآراء في شكل دراسات تقاس فيها مستويات الرضا عن أداء القطاعات الحكومية والخدمات المقدمة للمواطنين؛ ما يفوت الفرصة على من يريد استخدامها كدعاية نفسية، فضلاً عن أنها أداة جيدة لتحسين كفاءة عمل القطاعات الحكومية.

إن العناية بالروح المعنوية تحظى بأهمية قصوى لأرواح الشعوب، ذلكم لأنها تؤدي إلى ما يلي:

- تماسك الدولة ووحدتها وزيادة الشعور بالانجذاب والولاء من قبل الأفراد للدولة ولفلسفتها وقيمها ومبادئها وقواعدها ونظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.
- تبديد مشاعر الخوف والقلق والاكتئاب والعزلة.
- تعزيز قيم الإيثار والتعاون والتعاطف.
- الشعور بالمسؤولية الجماعية أمام المخاطر والمصاعب والتهديدات.
- زيادة الفعالية بزيادة الإنتاج وتحسين الأداء.

إن كل ما أوردته هو فعل تقني للحفاظ على الروح المعنوية، ومجابهة الحرب النفسية التي هدفها الروح والنظام والفضيلة، أما الفعل العميق الذي يكفل حالة التدفق الدائم بالولاء فهو تعزيز النظام السياسي بالفضيلة التي تحدثت عنها في مقالتي السابقة «الفضيلة السياسية»، وبالعلماء الربانيين المقاصدين الذين سوف أتحدث عنهم في مقالتي التالية «التجديد الديني»، وبالنبلاء الذين تحدث عنهم في مقالتي «أين النبلاء»، كما أن النظام السياسي سيعبر عن نفسه بقيم أصلية وقوالب عصرية ونظرية سياسية لإقناع الشباب الذين هم (٦٠) في المائة من المجتمع، والمقارعة العقلية للخارج؛ وكل ذلك سوف أتحدث عنه في مقالتي «سقوط الديمقراطية»، وأخرى «الحكم الصالح».

(٥)

إن الحرب النفسية هي قدر روح الجزيرة العربية، وعلينا أن نقوم بواجبنا التقني الغني، وهو ليس بصعب علينا فنحن نملك مقومات نجاح كبيرة؛ وأبرزها تنميتنا العملاقة التي تسير بتؤدة إلى أهدافها، ومنها ميزانية الخير الأخيرة بـ ٥٨٠ مليارا، عينها على تعليم وصحة الإنسان السعودي فضلاً عن نجاحاتنا الواعدة القادمة، وكذلك واجبنا الاستراتيجي عبر تعزيز الروح والنظام والفضيلة بالتجديد والإصلاح لمواجهة ذلك الغزو البغيض المعلن. يقول عالم الحضارة البحريني الدكتور محمد جابر الأنصاري: «.. أما ما أصبح اليوم مطلب الساعة في كل بلد من بلدان مجلس التعاون فهو الإصلاح المتضمن مبدأ المشاركة، بخاصة أن حالة الرخاء الاقتصادي التي تعيشها شعوب المنطقة قد أوجدت طبقة وسطى لا بد من أخذها بالحسبان بالنسبة إلى مستقبل المنطقة السياسي».

وترى أن «برنامج الإصلاح» في المملكة العربية السعودية -أكبر أعضاء مجلس التعاون- يكاد يطير على جناحين منذ أن تولى الحكم الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، وذلك بناءً على التراكمات الكمية -من اجتماعية وسياسية وثقافية- التي شهدها المجتمع السعودي، وتحققت في عهود إخوان الملك

عبدالله وأسلافه من أبناء الملك عبدالعزيز؛ مؤسس الدولة وبانيها. هكذا فإن بناء الدولة وإصلاحها يعتمد على مشاركة الناس ودولة قوية البنيان تحتضنه.

يقول صن تزو الصيني في كتابه «فن الحرب»: «إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعو إلى أن تخاف نتائج (مئة) معركة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تقاسي من هزيمة مقابل كل انتصار، وإذا لم تعرف نفسك ولم تعرف عدوك فإنك أحمق وسوف تواجه الهزيمة في كل معركة».

جعل اللّٰه يغيّر علينا

(١)

لا تستعجل.. كن كداهية القرن الرابع عشر: الملك عبدالعزيز ابن سعود.. يُحكي أنه ذات يوم كان يحضره بعض محبيه، فقال أحدهم: جعل الله يغيّر علينا يا عبدالعزيز.. ففزع القوم.. وبدو يناوشونه بالسب على أن ينتقلوا بعدها لشيء آخر!! بعد أن يرقبوا ردة فعل الإمام كبير المجلس.. بل كبير الدولة.. بل كبير التوحيد بالتوحيد الكبير... الناس بطبيعتها أعداء ما تجهل ويخافون المستقبل.. إن الحكماء فقط يتريثون فيستمعون ثم يشاورون فيتخذون القرار وينفذونه في التوقيت المناسب.. فقال الإمام الكبير: ماذا تقصد؟ قال: يا عبدالعزيز، أسأل الله أن يغيّر علينا للأفضل.. فضحك الجميع بعد أن فهموا بأن ليس كل تغيير يعني إنكاراً للمعاش أو تنكراً للماضي أو أن القادم أسوء..

إن الناس تحاول دائماً المحافظة على الوضع الراهن وتخاف التغيير، ولذا عاب الله على المشركين (قياس مع الفارق) بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣)﴾سورة الزخرف.

إن الثابت في الحياة ليس هو الثابت (خلاف الإيمان).. بل الثابت هو التغيّر.. انظر تبدل الليل والنهار، والشتاء والصيف، والشجيرة تغدو شجرة والزرع قمحاً، والجنين طفلاً والشاب شيخاً والحي ميتاً.. والحزن فرحاً والكساد نمواً.. إنها حركة دائبة دائمة في نمو وتبدل وتغيّر..

(٢)

يُعرّف التغيير لغة: وتغير عن حاله: تحوّل، وغيره: جعله غير ما كان، وحوله، وبدله، والاسم: الغَيْرُ. وغِيَر الدهر: أحداثه وأرض مِغيرة: مسقية.

للتغيير دوافع عدة منها: تسلم القائد الجديد الذي يسعى لتوظيف خبرته ومهارته ومعرفته في صناعة رؤيته لحل المشكلات فالتطوير والتقدم أو الاكتساب من التجارب المحيطة العالمية منها والإقليمية، أو المنافسة والتدافع الذي هو محرك التاريخ الإنساني للبناء، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (٤٠)﴾ سورة الحج.

انظر كيف يحتفل القرآن الكريم بالاختلاف والتنوع ويجعله سبيل العمران، بل والأمن والاستقرار.

إن التغيير قد يكون إستراتيجياً عند تغيّر الأهداف الكبرى التي تعكس عمق وسعة التغيّر في الرؤية، كما إن التغيّر قد يكون راديكالياً ثورياً أو تغيراً تدريجياً، وقد يكون التغيّر بسبة كثافة التغيير التكنولوجي.

إن التغير قد يكون تغيراً في الوسائل وحسب وذلك بخفض كلفة الإدارة وإغلاق قنوات الهدر، وقد يكون التغيير يمس العمليات أي إن تبدّل الطريقة التقليدية في تنفيذ الأشياء مثل أن تستخدم اللامركزية بدلاً من المركزية، وقد يكون التغيّر تغيراً ثقافياً وهو أصعب أنواع التغيّر وأخطرها؛ ذلك لأنها تمس الجانب الإنساني كأن تستخدم إدارة المشاركة بدلاً من إدارة الأمر والسيطرة.

والسؤال الجوهري الذي يطرح نفسه: متى يكون التغير قد حان وقته؟ أي: هل نضجت الظروف؟.. ويمكنك معرفة الإجابة إذا حصلت على ما يلي:

- **قائد محترم وفعّال**: إن فعالية القائد تعتمد على مهارة كبرى ورئيسة ومحورية؛ وهي قدرته على استقطاب وتعيين الرؤساء الجيدين وتحديد الرؤية والأهداف الإستراتيجية لهم؛ ثم تحفيزهم والرقابة عليهم؛ يقول بيث أكسليوود وجونز: «إن إبقاء الأشخاص ذوي الأداء السيئ في مناصب قيادية يخفض الحدود للجميع، وهذا خطر واضح على أي

شركـة تريـد إيجاد ثقافـة تركز علـى الأداء. إذ يستخدم الأشخاص سيئو الأداء أشخاصاً سيئي الأداء أيضاً ويثبط وجودهم الدائـم الأشخاص حولهم، ويجعل الشركة مكاناً أقـل جاذبية للأشخاص ذوي المواهب العالية ويدعو للشك بحكم القادة في المراكز العليا».

- **الشعـور بالحاجـة للتغـيّر**: إن الحاجة تعـبّر عن الحافز للتغيـير، ولـذا إنْ وجـدت أعطـت دافعية عظيمـة لعملية التغيـير.. قـدم العـالم دمنيـق صاحـب الثـورة النوعيـة «الجـودة» «مبادئ SPC» لعالم التصنيع الأوسع في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت الصناعة تعيش نشوة الانتصار بعد الحرب العالمية الثانية، فكان المصنعون راضين وقانعين ومرتاحـين فلم يقبلـوا أفـكار دمنيق. بينمـا كان منافسو أمريكا مستعدين للتغيـير فأخذت اليابان بنظرية الجودة وأفكار دمنيـق ودرّست مبادئه لألـف وخمسمائة مهندس وألوف من المشرفين، وقد غيرت حركة «الجودة» الصناعة اليابانية حتى بدأت تـدق أبراج الصناعة الأمريكية، التي عانـت كبرى شركاته مـن المنافسة ففي عـام ١٩٧٠م قام بيترسـون من شركة فورد بتعلم مبـادئ دمنيق.. والسؤال لمـاذا قبلت أفكاره؟ لأن الشركـة تعاني من بعض الخسائر

وعلم كلٌ من الإدارة والموظفين في قرارات أنفسهم بوجوب تغيير شيء ما.. إن الحاجة تعطي حافزاً مؤثراً لقبول ودعم التغيير.

- **تحدى الرضا الذاتي**: إن قراءة أوضاع المنافسين والحوار الداخلي والشكاوى ودراسات قياس الرضا الحقيقي كلها تعكس مستوى الرضا الذاتي، الذي بناءً عليه ومن خلاله تستطيع الشركة أو المنظمة التنبؤ بالأزمة فتسارع بالتغيير.

(٣)

كي يكون التغيير ناجحاً فلا بد أن يمر بخطوات سبع وهي:

- حرك الطاقة والالتزام عبر تعريف مشترك للمشكلات، وحلولها بطرح سؤال لماذا يجب أن نفعل هذا؟.
- طور رؤية مشتركة عن طرق التنظيم والإدارة، وانقل فوائد التغيير ابتداء لمن يميلون للتغيير «المبادرين»، فالناس يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة شرائح: (٢٠ ٪) يميلون لدعم التغيير منذ البداية وبقوة، و(٥٠ ٪) متفرجين منتظرين، و(٣٠ ٪) يميلون للمعارضة، وعلى القائد لاحقاً أن يضم المتفرجين وبعضاً من المعارضين، وذلك بوصف المستقبل المرغوب الذي يشعر الناس بالسعادة إذا حصلوا عليه.

- جـدد القيــادة واخــتر من يؤمــن بالتغيير ويملــك الخبرة والمهــارة لتحويل مشروع التغيــير إلى حيز التطبيق ثم ضع أهدافاً محددة تتسم بما يلي:
  - أن تكون مقنعة؛ أي أن تحسّن من الوضع الراهن وتنقل الناس إلى مكان أفضل.
  - أن تكون واقعية تتفهم حدود ومقدرات الناس.
  - أن تكون مركزة؛ فمن يريد أن يفعل كل شيء لا يفعل شيء.
  - أن تكون مرنة للتأقلم مع الظروف المتغيرة.
  - أن تكون سهلة يستطيع الجميع فهم غاياتها.
- ركز على النتائج وليس على النشاطات وأدوات التغيير، بل الأهم المخرجات القابلة للقياس حتى تعطي عملية التغيير فاعلية ومصداقية.
- ابــدأ بالتغيــير مــن أسفــل ثــم دعــه يصعــد؛ أي أن تبدأ بالوحدات الصغيرة ثم بالوحدات الكبيرة.
- اجعــل النجــاح جزءً من التــزام الشركــة أو المنظمة؛ عبر السياســات الرسميــة والأنظمــة والبنى القانونيــة، أي أن تجذّر التغيير في العمق حتى لا يعبث به أحدٌ لا حقاً.
- راقــب عمليــة التغيــير بحيــاد وموضوعيــة ثــم عــدل الإستراتيجيات، فالتغيير عمل إنساني يعتريه النقص.

(٤)

هناك أخطاء شائعة في عملية التغيير على القائد أن يتنبه لها ومنها:

- لا تحاول أن تفرض حلول جاهزة طورت في مكان آخر، بل إن الحلول الذكية هي تلك الحلول المطورة داخلياً مع الاستفادة الواعية من الأماكن الأخرى.
- لا تراهن على حلول شاملة مفروضة ومدفوعة من القمة.
- لا تحاول أن تغيّر كل شيء دفعة واحدة، بل على ثلاث دفعات.
- لا تعتمد على الإصلاح المادي والتقني فقط، بل المعنوي أيضاً، ولكن لا تصطدم بالقيم الدينية الكبرى المجمع عليها شرعاً.
- إن المنخرطين بعملية التغيير هم القادة كما أسلفت، ثم وكلاء التغيير «محفزون» الذين يتمتعون بروح المبادرة ويرون في مستقبل قائدهم أهدافه الإستراتيجية تعبيراً عن تطلعاتهم الوطنية أو الشخصية.
- وكلما تمتع هؤلاء بالإخلاص والأمانة والقوة في تحويل الأفكار إلى برامج عمل كان التغيير سريعاً وصائباً والعكس صحيح فيما يتّبَع هؤلاء الوكلاء موظفون عاديون ولكنهم

مخلصون للـوكلاء، فيما يقابل هـؤلاء بمعارضة ومقاومة شرسة من الرافضين للتغيير، وكلما زادت نجاحات القادة والوكلاء كلما ضعفت المقاومة ولكنها لن تخبو مطلقاً.

أما عن بقية الناس فعادة تكون مواقفهم من التغيير تمر بأربع مراحل ابتداءً بالصدمةثم التراجع للدفاع عن ماضيهم وما اعتادوا عليه، ثم يعترفون بالواقع الجديد، فيتبعه القبول والتكيف مع البيئة الجديدة.

قوتنا إعادة التموضع

(١)

أمام الدول خيارات للقوة؛ فإما أن تكون قوة أممية «عالمية» كالولايات المتحدة، أو قوة إقليمية كالبرازيل في أمريكا اللاتينية، أو قوة وطنية كسويسرا في أوروبا، أو قوة محلية كدبي في الإمارات.

إن اختيار نوع القوة يخضع لعوامل متعددة، ثابتة ومتغيرة، ومنها الجغرافي والاقتصادي «الثروات»، التعليم والتدريب «الإنسان»، نوع القيادة، الظرف التاريخي، الدين، اللغة والثقافة.

إن اختيار نوع القوة قرار ذو مخاطرة، وعائد يخضع لحسابات الحكمة السياسية في التقدير والتنبؤ بالمستقبل، فليس اختيار القوة الأممية بالضرورة سيكون له منافع وعوائد مرتفعة سياسياً واقتصادياً، بل قد يكون العكس، وكذلك اختيار أن تكون قوة وطنية فليس بالضرورة سيكون قراراً سهلاً ورشيداً؛ لأن هناك قوى أخرى ستقوم بشغل هذا الفراغ الإقليمي وتهدد قوتك الوطنية.

(٢)

إن أفضل قوة هي تلك القوة النابعة من الطبيعة أي غير المصطنعة؛ لأنها أبقى كونها لا تصطدم مع قدرها.

السعودية بها من عوامل القوة ومنها: القوة الجغرافية فنحن (٢,١٥ مليون كيلو متر مربع) وتحيطنا المياه من ثلاثة جوانب مع أخواتنا في جنوب الجزيرة العربية.

والقوة الاقتصادية إذ تعتبر المملكة أكبر اقتصاد عربي، كما أنها من أهم وأكبر عشرين اقتصاداً في العالم.

ولدينا احتياطات نفطية وغاز ومعادن ثمينة ضخمة تشكل (٢٥٪) من إجمالي احتياطي النفط في العالم، حيث تصل احتياطياتها إلى (٢٦٦,٨ مليار) برميل مؤكد، وهو ما يكفي لأكثر من (١٢٠ سنة) أي لأربعة أجيال مقبلة بإذن الله.

والقوة التاريخية الدينية والقومية؛ فنحن أرض الرسالة والمقدسات الإسلامية (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، ومنها خرج الفاتحون فكانت الخلافة على هدي النبوة، فقريش في الشام «بنو أمية»، فالعباسيون في بغداد، ومحمد الفاتح في القسطنطينية، ثم تصالحت السياسة مع الدين في الجزيرة العربية فكانت دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب والإمام محمد

بن سعود فولد مشروع الاستقرار والأمن والتنمية محققاً عقداً اجتماعياً متماسكاً لأكثر من (٣٠٠ عام)، تواجهه مشكلات كأي نظام سياسي، ولكن مزيته روح القيادة التي تسري في البيت السعودي فهو مستمع جيد للغاية، ويعرف أكثر مما تتوقع أو تتخيل. ودائماً.. دائماً.. المراجعة ثم السيطرة فالقفز للأمام، فهو نظام يعتمد على الترويض أو استنزاف العدو ثم الضربة القاضية في الجولة الحادية عشرة، ولا يتمتع بتلك الميزة إلا أعرق الديمقراطيات.

القوة البشرية فنحن مجتمع فتي يبلغ مواطنوه أكثر من ٢٠ مليون نسمة، أكثر من (٦٠ ٪ منهم أقل من ٢٠ عاماً) والشباب له دائماً صبوة يفكر في المستقبل ويندفع للأمام بقوة.. ذات يوم اصطحبت رجل البيع الأول في أمريكا وكنت أسأله كما أسأل غيره من العقلاء.. اذكر لي أبرز ما في السعوديين سلباً وإيجاباً.. فما كان جوابه إلا أن قال: السعوديون يحدثونك عن المستقبل والدولة على عراقة تاريخها فكأنما بنيت بالأمس «حديثة»، وعندكم من التسامح وحسن الضيافة ما يجعلني حزينا على الأفكار الخاطئة التي نحملها عنكم.. ثم قلت له: ما السلبيات؟ فأجابني.. ولن أحدثكم ماذا قال.. أتدري لماذا.. لأننا مجتمع فتي ينظر للمستقبل والمستقبل فقط.

قوة وحدتنا الوطنية «التماسك الداخلي»؛ لقد اُختبرنا مرات عدة ومن أبرزها أحداث ١١ من أيلول (سبتمبر) وغزو العراق وتخريب الخوارج الجدد، وقد راهن البعض على اهتزاز وحدتنا، فما كان جوابنا.. إلا مزيد من الالتفاف حول الشريعة والشرعية، وتصرف الجميع كقادة سياسيين وعلماء ومفكرين ومثقفين ومراكز الرأي بعقلانية أظهرت وعينا السياسي المتقدم، وأثبتنا للعالم أننا يمكن أن نختلف ولكن اختلافنا سيكون على الفروع لا الأصول، وعلى الممارسة لا المبادئ، ولو كان تروتسكي حياً لعجب من تلك الآله غير الحزبية التي جعلت هؤلاء يتناغمون فيما بينهم كأنهم أعضاء في أمانة واحدة لأكبر الأحزاب شمولية في التاريخ الحديث.. إن من ألّف هو الله؛ قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٣) الأنفال.

إن قدر هذه الجزيرة العربية الوحدة.. والوحدة فقط.. شئنا أم أبينا.

(٣)

عليه أتمنى أن تكون قوتنا الطبيعية، قوة إقليمية داخل شبه الجزيرة العربية في شراكة متكافئة مع دول مجلس التعاون الخليجي والجمهورية اليمنية، وأهلنا القبائل والعشائر «ثقافياً» في شمال شبه الجزيرة العربية.

لأننا وهؤلاء يجمعنا الدين والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والقرابة والنسب والمصير المشترك فضلاً عن منطق التفكير الواحد والملبس والمأكل والأذواق حتى الشكل الخارجي.

أتمنى أن تكون قوتنا الطبيعية أيضاً قوة أممية إسلامية بالتحالف مع العثمانية الجديدة في تركيا وماليزيا الحضارية في جانبين فقط؛ هما المساعدة المادية والعينية من خلال المنظمة الدولية السعودية الخيرية باسم «المساعدة السعودية»، والتي ستنضوي تحتها كل المؤسسات السعودية الخيرية العاملة خارج المملكة في إطار خطة شاملة ومنظمة، ثم الجانب الآخر: الثقافة المعتدلة فنقوم ببناء المراكز الإسلامية وابتعاث الطلاب المسلمين لأفضل جامعاتنا الإسلامية بأم القرى والجامعة الإسلامية وتعليم اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكذلك طباعة المصحف الشريف بمجمع خادم الحرمين الشريفين

الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله والسنة النبوية عبر مجمع جديد، أضف إلى هذا وذاك دعم المنظمات الدولية الإسلامية كرابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي.

علينا أن نتجاوز الملفات العربية باستثناء ملف القضية الفلسطينية والذي سبق أن تحدثت عنه في مقالتي «المقاومة.. الخيار السعودي»؛ لأن الملفات العربية شائكة وتحكمها الغرائز والابتزاز، فعوائدها السياسية قليلة، واصطدامنا مع قوى إقليمية عربية أخرى محتوم، وعلينا أن ندعهم لخياراتهم ثم سيعودون يطلبون المشورة والدعم.

(٤)

إن الشرق الأوسط يحتاج لقوتنا الإقليمية والأممية المركزة والمحددة والمؤمن بها من شركائنا وحلفائنا على جميع المستويات السياسية والثقافية والاقتصادية والرموز الوطنية، مدعوماً بمراكز تفكير إستراتيجية بها أفضل عقول شبه الجزيرة العربية فنحن جميعاً سنجني ثمار القوة.

يقول برنارد لويس في كتابه «مستقبل الشرق الأوسط» متنبئاً بحدوث فراغ أممي نظراً لانسحاب القوتين العظميين من المنطقة؛ ما يشكل تحدياً كبيراً للقوى الإقليمية لملء هذا الفراغ،

يقول: «.. لكن روسيا مرحلياً قد أصبحت خارج اللعبة وستبقى لسنين طويلة هكذا، أما أمريكا فستبقى مترددة في أن تدخل اللعبة. وهذا يعني أن الوضع سيعود إلى ما كان عليه سابقاً. القوى الخارجية لها مصالح في المنطقة إستراتيجية واقتصادية وهي ستتدخل بين وقت وآخر في قضايا الشرق الأوسط وتؤثر في مجرى السياسات فيها، لكن لن يكون دورها دور السيطرة الكاملة أو اتخاذ القرارات الحاسمة».

إن العالم سيتجه إلى إستراتيجية تعدد الأقطاب بين قوى إمبراطورية أو قوى إقليمية أقل قوة، ونحن قدرنا فاعل دائماً لأننا حملة راية التاريخ والجغرافيا والرسالة، وأذكياء في اختيار التوقيت وإعادة تموضعنا الاستراتيجي قد حان وقته.

إن إظهار قوتنا والاحتفال بها ضرورة.. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ (٦٠)﴾ الأنفال.

إن غاية القوة بث الطمأنينة والثقة بالحاضر والمستقبل فيندفع الناس بالعمل والاستثمار والسباق والمثابرة، كما أن غايتها تخويف العدو وردعه -فيستمع للحكيم أرسطو حينما كان يربي الإسكندر المقدوني منذ أن كان عمره ١٣ عاماً، ويقول

له عندما أراد أن يغزو فارس للانتقام لقتل أبيه «غيلة» وهي عادة القوم، فقال له آنذاك: إياك وجزيرة العرب فإن بها قوماً ذوي بأس يجيدون القتال كراً وفراً يعرفون أرضهم جيداً-. أو تخويف المشككين الذين يتربصون بنا؛ فإما يسقطون أحلامهم المريضة، أو يؤجلونها إلى زمن غير محدود.

إن قوتنا الطبيعية النابعة من مقوماتنا الجغرافية والاقتصادية والبشرية والدينية والاجتماعية السياسية ستكون قوة إقليمية مركزة في مجالها الحيوي في شبه الجزيرة العربية، وتواصلا أممياً ثقافياً فاعلاً ومعتدلاً مع العالم الإسلامي؛ ما سيؤدي للانسحاب السياسي التدريجي من مناطق عربية ودولية، وتوظيف الطاقة الفائضة نحو خطوات إستراتيجية كبرى نحو نشاط اقتصادي تنموي واستثمار، وانفتاح اجتماعي وبشري أكبر مع ذلك المجال الجديد.

المقاومة.. الخيار السعودي

(١)

أطلق خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، مبادرته للسلام معتمداً على مبادئ الحكم السعودي؛ ومنها أن قوة السياسة مقدمة على سياسة القوة، وقد تبناها العرب في مؤتمر القمة المنعقد في بيروت عام ٢٠٠٢م وسُميت المبادرة العربية للسلام.

يعمل السياسي الجبل وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل الآن على نقل ملف المبادرة العربية لمجلس الأمن للضغط باتجاه الاعتراف بالدولة الفلسطينية، فيما يلوح الرئيس الفلسطيني بإعلان الدولة من جانب واحد بعد المفاوضات غير المباشرة لمدة أربعة أشهر، وفرنسا وروسيا تدعوان لمؤتمر دولي جديد، فيما إسرائيل تحاول شن حرب للتعمية على أزمتها وخلط الأوراق في المنطقة.

(٢)

إن البيت السعودي مخلص لقضيته ولا يحتاج الواثق للمزايدة، وعقلاني الطرح لأنه يعرف الفرق بين الممكن وغير الممكن، فالسياسة لا ينفعها إلا الرجل المكيث، كما أنه يفرق بين الرغبة «العاطفة» والقدرة، وراسخ وعميق في سياسته كعمق تاريخه السياسي لأكثر من ٦٠٠ سنة من الممارسة وفن الحكم منذ عام ٨٥٠ هـ مؤمن بثوابته فبالرغم من الصلات الاقتصادية والتعليمية الوثيقة مع الغرب الذي يتواطأ أحياناً مع قوى إقليمية ويستخدم الضغوط السياسية والإعلامية والعسكرية المحدودة لتقديم تنازلات للتطبيع وتخلي المملكة عن زعامتها للعالم الإسلامي، فالقدس وقف إسلامي مفتاحه عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة المنورة، والمملكة طالما تجاوزتها فلم نفتح سفارة ولم نفاوض ولم نعقد صفقات أسلحة عبر إسرائيل لقتل العرب، إن الخيار السعودي هو أحد الخيارات الأربعة المطروحة في الشرق الأوسط:

الخيار الأمريكي:

آمن أخيراً بحل الدولتين ولا يستطيع تنفيذه، فهو خاضع للإملاءات الإسرائيلية المتكئة على نفوذ اللوبي الصهيوني والثقل

الانتخابي والاقتصادي وسلاح معاداة السامية، فأصبح طفلاً مدللاً للغرب كما صرح بذلك سمو الأمير سعود الفيصل، وعلى العرب أن يطبعوا مع إسرائيل «الاعتراف» ثم ينتظروا النتائج المتوقعة، ولا أحد يعرف شكل الدولة وحدودها ومصير القدس واللاجئين ومتى.. حتى دون ضمانات أمريكية.. باختصار قدم تنازلات إستراتيجية أخيرة ثم فاوض.

الخيار الإيراني:

لا يؤمن بحل الدولتين وسيدمر إسرائيل فيقيم المهرجانات الخطابية «الصوت العالي المرتفع» ويلبس الكوفية الفلسطينية، يصنف الخائن ويعطي صكوك البراءة ودخول الجنة، وقليل من كفالات الأيتام لأسر الشهداء لإعطاء شيء من المصداقية، ثم يفاوض على مصالح قومية ضيقة؛ إما لاقتناء السلاح النووي، أو تثبيت المكاسب في العراق وأفغانستان بعدما تحالف مع الشيطان الأكبر «أمريكا» ضدهما.

يمكن لأي نظام سياسي مأزوم أو معارض مطارد أن يلتحق بهذا الخيار، وأيضاً للتفاوض وتحقيق مكاسب آنية.

إن السلام في المنطقة يهدد سلامة الأنظمة التي تعيش في شرعيتها على مواجهة العدو الخارجي فلا تنمية ولا تحديث أو

تطوير، ولذا هذا الخيار لا يريد السلم كما لا يريد الحرب أيضاً، وهذا في النهاية خيار إسرائيل الأول.

الخيار الثوري:

يؤمن بحل الدولتين سراً ويرفض الحل علناً، متناقض بين ثوابته العقدية وسلوكه السياسي، ولا يستطيع أن يوضح ذلك للشعوب فيدخل في مغامرات غير محسوبة فيقاوم مقاومة عسكرية دون مقاومة سياسية إستراتيجية، ضمن خليط من التحالفات والتقاطعات؛ ما يجعل أجندته منشغلة بأجندات عدة، فلا تعرف لماذا بدأت المقاومة؟ ثم لا تعرف لماذا توقفت!! دائماً.. دائماً.. يقول لك دماء الشهداء تسقي قضيتنا.. ثم يكتشف تعرضه للخيانة من أقرب الحلفاء إليه من الخيار الثاني، وغالب المنتمين إليه مخلصون فقدوا الطريق الصحيح.

الخيار السعودي:

يؤمن بحل الدولتين في سلوك سياسي رزين فلا يذهب لأي من الخيارات الثلاثة، ويحافظ على استقلاليته ووسطيته فلا تطبيع ولا مزايدة «استخدام»، ولا مغامرة، ويطالب بالصبر والمثابرة والدفع باتجاه الضغط بإستراتيجية ورؤية واضحة مقنعة

ومتماسكة وتحظى بالقبول الإقليمي والدولي، مع العناية بالدعم الاقتصادي والفريد للشعب الفلسطيني وحكومته، وتوحيد الصف الفلسطيني وحقه المشروع في مقاومة المحتل.

إن العقل السعودي بخبرته يقرأ العقل الصهيوني ويناجزه بأدواته، يقول أوفير أوكنس في جريدة «إسرائيل هيوم» عن زئياف جابو تنسكي: إنه أحد الأوائل الذين فهموا أن الكفاح الناجح يترافق وخلق رأي عام في صالح الفكرة التي يرغب في تقدمها.

(٣)

إن الخيار السعودي يحتاج لمكمل يُعبّأ خلاله المجتمع الأهلي «المدني» العربي والإسلامي والدول الرئيسة فيه نحو إستراتيجية تحرك شاملة داعمة للجهود السعودية، ونجاحنا في نقل الحركة مع بقاء الجهود الحالية، فالمجتمعات الأهلية غدت لاعباً رئيساً في السياسة الوطنية والدولية وذراعاً مؤثراً وغير مكلف، كما هو قناة تعبير وتحرك شعبي صحية تستوعب مشاعر وعواطف الناس وتطلعهم، ولا سيما أن قضيتنا عادلة والتوقيت مناسب للغاية؛ لأن نقوم بدور «طالوت» فنحن ورثته العقائديون فنؤمن والإمام محمد بن عبدالوهاب كما آمن هو: «أن لا معبود بحق إلا الله»، فيما إسرائيل تقوم بدور «جالوت» المتكبر الغاشم، كما

أن الإدارة الأمريكية الجديدة وعلى رأسها أوباما المنفتح والمؤمن بأن إسرائيل أصبحت عبئاً على الأمن الاستراتيجي للولايات المتحدة، ففي عام ٢٠٠٤م قال مجلس الدفاع المعرفي الذي شكله البنتاجون: «المسلمون لا يمقتون حريتنا، بل يكرهون سياستنا، فمعظم المسلمين يعارضون الدعم المنحاز لـ «إسرائيل» الذي يحول دون حقوق الفلسطينيين»، إنني على ثقة بأن الوسيط الأمريكي الجديد والنزيه «نسبياً» وعلى رأسهم ويليم بيرنز وجورج ميتشل يحتاج إلى زخم للمبادرة السعودية للضغط على إسرائيل، كما أن المتربصين بنا سيعوقون نجاح المبادرة السعودية، ونحن على أبواب انعقاد القمة العربية في ليبيا عام ٢٠١٠ م.

إن تحرك المجتمع الأهلي «المدني» في المملكة العربية السعودية وبعض الدول العربية والإسلامية سيكون وفق ما يلي:

- تشكيل وفد من المثقفين «العقلاء» العرب والمسلمين لشرح المبادرة العربية لدى مراكز النفوذ السياسية والثقافية في العالم.
- إقامة معارض لشرح مأساة الشعب الفلسطيني والمجازر والترويع والتهديد الذي تعرض له.
- التواصل مع المنظمات الدولية المهتمة بالطفل والمرأة وحقوقهما.

- إبــراز الـبـطـولات الـوطـنـيـة والـتـاريـخـيـة وطـبـاعـة قصصها للناشئة.
- مقاطعـة المنتجـات الإسرائيليـة في الـدول العربيـة والإسلامية، ومطالبة بقيـة دول العالم بمقاطعة المنتجات الإسرائيلية المصدرة من الضفة الغربية والجولان المحتل.
- التعبئـة العامـة الدينية مـن خلال خطـب الجمعة وفضح التاريخ العنصري لإسرائيل ومفاخرتها بالنقاء العرقي.
- الاتصال والتأشير بالقوي والشخصيات الرافضة للتسلط الإسرائيلي، ومنها اليسار العالمي والاشتراكية الدولية.
- الرفع لهيئة الأمم المتحدة طلباً للاعتراف.
- التأكيـد على شرعية المقاومة داخـل الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧م.
- عقد لقاء دولي للحـوار بين العلماء المسلمين ورجال الدين اليهـود، وإظهـار النصوص الشرعيـة التي تكفـل حرية التدين والتفريق بين العـدو المحتل «إسرائيل» وعصمة دم اليهودي غير الحربي.
- الانتفاضة الشعبية داخل الضفة الغربية.
- توحيد الجبهة الداخلية الفلسطينية «الوحدة الوطنية».
- تخفيض الـدول العربيـة والإسلاميـة التـي لهـا علاقـة بإسرائيـل تمثيلهـا الدبلوماسـي وممارسـة الضغـوط السياسية عليها.

- تحريـك دول عـدم الانحيـاز باتجـاه الاعـتراف بالدولة الجديدة.
- العناية بالآثار الدينية العربية والإسلامية في فلسطين.
- إنتاج فيلم وثائقي قصير مدته ١٥ دقيقة ومؤثر يبث عالمياً.
- نشـر في الصحافـة الدوليـة البـارزة – مطالبـة العالمـين العربي والإسلامي بالسلام والاعتراف بالدولة الجديدة.
- إعـداد موقع إلكتروني تفاعلـي عالمي يشرح فيـه القضية الفلسطينية بعدة لغات، ثم يطالب بدعم الاعتراف.
- كفالة ٢٠ ألف أسرة فلسطينية منها عشرة آلاف من رجال أعمـال فلسطينيين ميسورين في المهجـر والوطن العربي، ويكون أغلب المستفيدين منها أسر الشهداء.
- كفالة ألـف حلقة تحفيظ قـرآن، وإقامـة مسابقة القدس لحفظ القرآن الكريم.
- إرسـال عشـرة ملايـين رسالـة بريـد إلكـتروني لأعضاء مجلس الشيوخ الأمريكـي والفرنسي والبريطاني والألماني واليابـاني والصينـي والروسـي لطلـب دعـم الاعـتراف بالدولة الجديدة.
- دعم زواج عشرة آلاف شاب فلسطيني.
- رفع دعـاوى جرائم الحرب في المحاكـم الدولية المختصة ضد القادة الإسرائيليين.

- إعادة الاعتبار للجواز الفلسطيني، وتحسين أوضاعهم كلاجئين في الدول العربية ثم منع توطينهم.
- تشجيع إدخال القضية الفلسطينية أرقام غينس العالمية على سبيل المثال تجري مسابقة عالمية عن أكبر لوحة علم فلسطيني.
- على القوى الفلسطينية كافة أن تقوم بإدخال إصلاحات قيادية واسعة داخل أطرها التنظيمية، ومنح القيادات الفلسطينية الشابة والمخلصة والنظيفة المحترفة دورها التاريخي.
- إعداد فريق من المحامين الكبار في العالم العربي لوضع دستور الدولة الفلسطينية المقبلة.
- التواصل مع ألف معلق ومذيع بارز عالمياً.
- تكثيف عمل المنظمات الإغاثية والإنسانية، والقيام بحملة كبرى لجمع التبرعات.
- حض المنظمات والأحزاب والشخصيات العربية والإسلامية في المهجر وخاصة في الولايات المتحدة على الضغط.
- مقاطعة الشركات المانحة فقط للكيان الإسرائيلي.
- تكوين فريق من المسيحيين العرب من الطائفتين الأرثوذكسية والكاثوليكية لطلب دعم اعتراف المراجع الدينية بالدولة الجديدة.

- طباعـة مليـون نسخة من أفضـل عشرة كتب ألفهـا أجانب منصفـون عـن القضيـة الفلسطينية، ثم تـوزع على مراكز البحث العلمي وكبار المثقفين والسياسيين البارزين في العالم.
- إعـداد وثيقـة يوقـع عليها مليـون فلسطينـي يطالب بحق العودة ولاسيما من فلسطيني ١٩٤٨م.
- إنشـاء صنـدوق لدعم المشاريـع الصغـيرة بالتضامن مع المنظمات الدولية لخلق وظائف للفلسطينيين في قطاع غزة والضفة الغربية بمبلغ قدره ١٥٠ مليون دولار.
- تكـريم الشخصيات العالمية التي قدمـت إنجازات خاصة لدعم القضية الفلسطينية.
- إعـداد قائمـة سـوداء للشخصيـات العالمية التـي تعادي الحـق المشروع للشعب الفلسطيني ومعاقبتها بالتشهير بها وإرسال ١٠٠ ألف رسالة لإدانة أفعالها.
- إقامة ١٠٠ مسرحية للطفـل في أنحاء العالم تحكي معاناة الطفل الفلسطيني.
- توزيـع عشرة ملايـين كوفية لطلاب الجامعـات في العالم والطلـب بدعـم قضيتنـا العادلـة (الاعـتراف بالدولـة الجديدة).
- تشكيـل فريـق رياضـي «كـرة قـدم» نصفه مـن فلسطين الداخل والنصف الآخر من أبرز لاعبي العالمين الإسلامي والعربي وإقامة مباريات يكون ريعها لصالح الفلسطينيين.

إن المشككين في جدوى تلك المقترحات عليهم ألا يتسرعوا في الحكم عليها قبل قراءاتهم مذكرات بن جوريون وآريل شارون وكتاب مكان تحت الشمس لنتنياهو.

(٤)

إن هذه المقترحات لن تجد طريقها للتنفيذ دون آلية عمل ومنها:

- تكوين مجلس تنسيق من السعودية ودول الطوق العربي وتركيا وماليزيا للإشراف على تنفيذ الخطة.
- تخصيص مبلغ مليار دولار كميزانية تقديرية لتلك الأنشطة.
- مدى الخطة ثلاث سنوات.
- تشكيل أمانة عامة من وزير خارجية السعودية، وعضوية الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وأمين جامعة الدول العربية، و(٤٠) عضواً من خيرة قيادات المجتمع الأهلي «المدني» يرأس كل عضو هدفاً من الأهداف.
- تشكيل محكمة من كبار قضاة العالمين العربي والإسلامي لتقدير مصلحة السياسة الشرعية للبت سريعاً في أي خلاف قد يطرأ ولم يحل بالطرق الودية.
- تتقاسم المجتمعات الأهلية في الدول العربية والإسلامية ٤٠ هدفاً وفق تقدير مصلحة تحقيق أهداف المقاومة نحو «الاعتراف بالدولة الجديدة».

(٥)

إن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز معني بالقضية الفلسطينية، ليس لأنه امتداد تاريخي للبيت السعودي فحسب، بل لأنه القائد الأكثر شعبية في العالمين العربي والإسلامي، ويتميز بالمبادرة التي أصبحت أحد أكبر عناوينه الذاتية وهنا تتجلى الزعامة بالقدرة على إشعال الفتيل في قادة العالمين العربي والإسلامي والوطن كي يحركوا الأتباع باتجاه أهدافنا العليا التي أصبحت قضية كل أحد.

إن الخيار السعودي هو الخيار الوحيد والممكن والأكيد بإذن الله لحقن دماء المسلمين وإسقاط المفلسين المتاجرين بها، وإلحاق الهزيمة بالتطرف الإسرائيلي المختبئ بقوة السياسة قبل سياسة القوة، وتوجيه الطاقة نحو البناء والتنافس الحضاري بالإعداد لتملك القوة بكل مفرداتها ومعانيها.

سقوط الديمقراطية

(١)

سقط النظام السياسي التونسي فسقطت التجربة العلمانية الديمقراطية الرائدة في العالم العربي التي تغنى بها الليبراليون العرب.. والسؤال هل سبب السقوط النظام الديمقراطي ذاته، أم لسبب بيئة التطبيق أو سوء الممارسة؟.

(٢)

تعرّف الديمقراطية بأنها نظام سياسي - اجتماعي يقيم العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة وفق مبدأ المساواة بين المواطنين ومشاركتهم الحرة في صناعة التشريعات التي تنظم حياتهم وبما يحفظ حقوقهم وحرياتهم المدنية. أما أساس هذه النظرة فيعود إلى المبدأ القائل بأن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر الشرعية أما اشتقاق التعبير فيعود إلى كلمة يونانية بنفس اللفظ وتعني حرفياً «حكم الشعب» أي حكم «الأكثرية» كي تميز نفسها عن الحكم الفردي أو حكم الأقلية «الارستقراطية».

تقوم الديمقراطية على مبدأ فصل السلطات، فإن أي نظام حكم يقوم على ثلاث وظائف: (التشريع، التنفيذ، القضاء)، والفصل يقصد بها ألا تجتمع مختلف وظائف الدولة، أي سلطاتها، في يد أو هيئة واحدة، ويعتبر أرسطو هو أول من نادى بمبدأ فصل السلطات إلا أنه نُسب إلى مونتسكو صاحب كتاب «روح الشرائع» حين أعطى المبدأ صياغة وعرض دقيق وفي ذلك يقول مونتسكو: «لقد أثبتت التجارب الأبدية أن كل إنسان يتمتع بسلطة؛ يسيء استعمالها، إذ يتمادى في هذا الاستعمال حتى يجد حدوداً توقفه، إن الفضيلة نفسها في حاجة إلى الحدود، وللوصول إلى عدم إساءة استعمال السلطة يجب أن يكون النظام قائماً على أساس أن السلطة تحد من السلطة».

إن الديمقراطية الغربية نبعت من تطور تاريخي سياسي وعسكري وفكري ممثلاً بالمدرسة الاجتماعية الليبرالية، يقول الطيب بو عزّة في كتابه «نقد الليبرالية»: «ويرجع لفظ الليبرالية من حيث الاشتقاق اللغوي إلى اللفظ اللاتيني «ليبراليس» الذي يعني «الشخص الكريم، النبيل، الحر» والشخص الحر هو المعنى الذي سيكون مرتكز البناء الدلالي للمفهوم الليبرالي نهاية القرن الثامن عشر حين لم يكن لفظ الليبرالية متداولاً بل كانت كلمة «ليبرال liberal» هي الشائعة وقصد بها حينئذ «الشخص المتحرر فكرياً» إلا أن اللفظ أخذ شكله النهائي في القرن التاسع

عشر كمذهب له أساسه الفكري «ليبرالية liberalism» ونظريته السياسية «الديمقراطية» ونظريته الاقتصادية «الرأسمالية».. فالليبرالية من الناحية الفكرية تعني حرية الاعتقاد والتفكير والتعبير، ومن الناحية الاقتصادية تعني حرية الملكية الشخصية، وحرية الفعل الاقتصادي المنتظم وفق قانون السوق، وعلى المستوى السياسي تعني حرية التجمع وتأسيس الأحزاب واختيار السلطة.. أن سقوط مفهوم الديمقراطية هو المعرّف آنفاً هو ما سأتحدث عنه ثم سأتناول: «سقوط الرأسمالية» ثم «سقوط الليبرالية» بمقالتين تاليتين.

(٣)

إن الديمقراطية كنظام أخلاقي «فكري» وسياسي للحكم حقق نجاحاً وإخفاقاً متفاوتاً ونسبياً وغير مطلق بحسب الظروف المحيطة بكل أمه قوميه غربية، فهي تجربة إنسانية بحته قبلتها أوربا الغربية كفرنسا وبريطانيا ورفضتها أوروبا الشرقية فأنتجت النازية القومية والفاشية الإيطالية والشيوعية الروسية في حين قامت الدول الاسكندينافية بإنتاج نظام سياسي مختلط بين الديمقراطية والاشتراكية المركزية.

لقد حاول المفكر الأمريكي فيكوهاما تصوير الديمقراطية على أنه النظام الفكري والأخلاقي والسياسي والاقتصادي السامي

والنهائي المقدس وهو ما يؤمن به غالب المفكرين بالولايات المتحدة الأمريكية قبل غزو العراق في حين أنه تطور تاريخي خاص فالبرغم من جاذبية الفكرة النظرية لمفهوم الحرية والعدالة إلا أن استقراء السياق التاريخي يثبت أن الديكتاتورية الغربية انتقلت من سلطة الإمبراطوريات في العهد الهلنستي ثم البيزنطي ثم حكم الكنيسة «الحكم الإلهي» ثم إلى الملكية والنبلاء والإقطاع بالقرن الخامس والسادس والسابع عشر المؤيدة من علماء الإصلاح الديني ثم بروز الدولة القومية العلمانية تتويجاً لعصر الأنوار «النهضة» والثورة الفرنسية التي أعادت إنتاج احتكار السلطة في يد البرجوازية الرأسمالية حيث يقول كارل ماركس منظر الشيوعية–التي جاءت كردة فعل على الليبرالية التي أنتجت الرأسمالية المتوحشة بعد الثورة الصناعية فأعادت استعباد الناس تحت شعار حرية الملكية الفردية –: «إن الديمقراطية مرحلة تاريخية تبرز نتيجة نشؤ المجتمع الرأسمالي البرجوازي الذي يقوم بتولي مهمة إنهاء النظام الإقطاعي والأرستقراطي فتلجأ إلى استخدام الدول كأداة قهر طبقية للحفاظ على الملكية، وتتحول مع تغير طبيعة علاقات الإنتاج تدريجياً إلى نظام تسلط غير ديمقراطي يحول دون حصول الطبقة على حقوقها» لقد أصابت الاشتراكية في

انتقادها للديمقراطية الليبرالية ولا سيما عندما ذهبت إلى القول أن الديمقراطية الحقيقية لا تكوّن حكم الأغلبية إلا إذا كانت نتائج الديمقراطية الاقتصادية لصالح الأغلبية فجوهر الفكر الديمقراطي المساواة الذي لا يمكن أن تستخدمه في السياسة وتبعده اقتصادياً واجتماعياً فتفرغ الديمقراطية من مضمونها التي أعادة إنتاج احتكار القلة للرأسمال وضنك الطبقة الوسطى عبر إثقالها بنظام ضريبي عالي وإشغالها بلقمة العيش في حين تعاني المرأة والأقليات من تمييز عنصري فيما يقوم النخب السياسية بالتعويض خارجياً نحو نهب مقدرات الشعوب النامية إما بالاستعمار الاقتصادي أو الغزو لمسلح.

لا بد من القول بأن الأنظمة الديمقراطية الليبرالية قد تمكنت بناء نُظم عادلة وصناعة منتجات وخدمات معرفية ومادية حضارية انعكست إيجابياً على رفاهية الفرد الذي وصلت أوجها خلال قرن من الزمان أما الآن فهي إلى صيرورة الديكتاتورية الديمقراطية وأقول أن هذا النظام يعاني من مشكله هيكلية لن يخرج منها فالقلة الغنية تسيطر على كل شي بما في ذلك وسائل الإعلام والتأثير والرأي العام على المقترعين وبالتالي على صنّاع القرارات ثم أن الطبقات محدودة الدخل التي بدأت في الازدياد بقوة في المجتمعات الرأسمالية أقل وعياً وحماسه وقدرة على

المشاركة في الحياة العامة كما أنها أضعف إمكانية في توفير المصادر الضرورية والكافية لبناء التنظيمات السياسية ما جعل الديمقراطية طريقاً آخر لإعادة تمركز الملكية ووسائل الإنتاج التي جاءت للقضاء عليها.

يقول «آل جور» في كتابه هجوم على العقل: «تتعرض ديمقراطيتنا لخطر تفريغها من معناها. ففي الواقع تشتري أصوات الناخبين في بعض الأحيان بمجرد خلق طلب زائف على منتجات جديدة، ومنذ عقود مضت كتب الصحفي والمعلق السياسي الأمريكي والتر ليمان يقول: «يفترض أن صناعة الموافقة والقبول.. ماتت مع ظهور الديمقراطية.. لكنها لم تندثر فلقد تحور أسلوبها في الواقع – بصورة هائلة.. تحت تأثير الدعاية ولم يعد من المقبول الإيمان بالمبدأ الأصلي للديمقراطية».

ما أود أن أخلص إليه أن النظام الديمقراطي الغربي في طور الأفول كصيرورة تاريخية إنسانية إما بسبب إفلاس داخلي أو فلسفي خارجي توّج باحتلال العراق وأفغانستان والسقوط الكبير الذي أعنيه هو سقوط قداسته الفكرية وستخضع مبادئه لانتقاء كأي فكر إنساني أرضي آخر كما أن القرن القادم سيكون قرن العقائد والمذاهب الدينية.

(٤)

في العالم النامي وتونس جزء منه وقعت في الخطأ الإستراتيجي الفادح بعد الاستقلال حينما تبنت الليبرالية والعلمانية كمذهب فلسفي وأخلاقي مقدس ومطلق كأنما قدرنا في هذا الشرق هو التطرف إما بالجمود أو الجحود. يقول الأمير شكيب أرسلان في كتابه لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: «ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم فكما أن آفة الإسلام في الفئة التي تريد أن تلغي كل شي قديم بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئاً ولا ترضي بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي ظناً منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر... فقد أضاع الإسلام جاحد وجامد.. فالجاحد يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم وشخصياتهم ويحملهم على أفكار ماضيهم ويجعلهم بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً؛ فيذوب فيه ويفقد هويته وهذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه واعترافه بأن أباءة كانوا سافلين وإنه هو يريد أن يبرأ منهم وهذا لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس الوضيع النفس، أو عن الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء ليس له نصيب من تلك الأصالة وهو مخالف لسنن

الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمه ميلاً طبيعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكن وغير ذلك إلا ما ثبت ضرره».

لقد اصطدمت الحكومات الليبرالية العلمانية والليبرالية العلمانية العسكرية بالمقدس الإسلامي حينما الفت سيادة الشريعة ما خلق صراع بين الإيمان كعقيدة والسياسة كممارسة وستضل هذه المشكلة الكبرى دائمة ديمومة الإسلام ذاته لأنه نظام عقدي وسياسي في آن معاً يقول الدكتور «فز جرالد»: ليس الإسلام ديناً فحسب ولكنه نظام سياسي أيضاً وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين فان التفكير الإسلامي قد بنى على أساس أن الجانين متلازمان لا يمكن فصل أحدهما على الآخر وبافتراض أن العلمانيين العرب عقلانيين، فالعقل يقول أن تطبيق الديمقراطية في العالم العربي يفتقد لبنية التنظيم السياسي والحزبي والمهني مع تفاوت طبقي حاد بين الملاك القلة والمساكين الأكثرية وبالتالي افتقاد الطبقة الوسطى التي تحقق الاعتدال والاستقرار والتماسك الاجتماعي فضلاً عن انتشار الأمية وإعلاء قيم العشائرية والطائفية والقبلية إن كل تلك المعضلات تعمل على ممارسة ديمقراطية

غير حقيقية بل أن أغلب الممارسات في العالم النامي جاءت تحت ضغط الغرب كشرط للحصول على المساعدات الاقتصادية أو الحماية السياسية وأفرزت تلك التجارب تمثيليات سطحية كانت أحد مشاهدها الدرامية: تونس.

(٥)

ما حدث في تونس هو تعبير عن مشكله هيكلية بالنظام الديمقراطي وافتقاد البنية الاجتماعية والسياسية الممكنة للحصول على نتائج نسبية كما في الغرب حينما عالج الرأسمالية بالمزاوجة مع الاشتراكية أما عن التخلف السياسي الذي يحصل للمسلمين فلن يكون إلا إحدى ثلاث: إقصاء العدالة الإلهية الممثلة بالشريعة الربانية أو قصور علماءها عن الاجتهاد المشروع بما يحقق التبدل والتجدد والتغير المطلوب لمحاكاة العصر أو أن الفضيلة السياسية قد ضعفت عند القيادة السياسية والنبلاء بالمجتمع.

بديل الديمقراطية

(١)

ابتداءً أنصح اثنان عليهما ألا يقرأ ما أكتب على الأقل هذه الفترة، وهما: إنسان عيناه لا تغادر قناة الجزيرة مباشر أو المواقع الإلكترونية السياسية، لسببين وهما: أن زعيم الجماهيرية العظمى يجعل الحليم حيران أما غير الحليم فسيُجنّ لا محالة، والسبب الثاني أن العالم الافتراضي يغرق بك في التفاصيل، وهذه التفاصيل لا تسَلَم من الصحة أو الحرب النفسية المنظمة أو الظن أو الكذب فما بالك إذا تزاوجا القناة والانترنت اللذان سيحدثان رأي لا أقول أنه غير مخلص أو صالح، لا.. لا.. إنما هو رأي لا ينفع لأن يكون موقفاً فكرياً، فالفكر عابر للزمن الآني والمأزوم، وحياة الشعوب وقضاياها الكلية لا يمكن البت بها بالعواطف المقدّرة.

أما الإنسان الثاني فهو الليبرالي اللذي ينطبق عليه المثل: «عنز ولو طارت» ويطالب باستنساخ النظام السياسي الغربي كما استنسخت النعجة «دولي» فهو يقول أما الديمقراطية أو الجحيم، فهو يرى أن الإسلام دين فحسب «العلمانية» ولا يريد

أن يستمع لقول الدكتور غير الوهابي بطبيعة الحال «فزجرالد»: «ليس الإسلام ديناً فحسب، ولكنه نظام سياسي أيضاً، وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين، فإن التفكير الإسلامي قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر».

قام المجتمع الدولي من هيئات ومؤسسات وفعاليات سياسية واقتصادية وتنموية اجتماعية بتقييم تجربة الديمقراطية بالعالم النامي وقد اكتشف هؤلاء أنها ضعيفة في الجوهر قوية في المظهر، ذلك أن أغلب الدول استجابت لرغبات تلك القوى المنتصرة بعد الحرب العالمية الثانية طمعاً في مساعدات اقتصادية أو بحثاً عن استقرار سياسي «شرعية» فقامت بسن تشريعات وقوانين بإنشاء مؤسسات وهياكل مدنية مثل البرلمانات والأحزاب ثم كانت النتائج ضحلة ما دفع للتفكير جدياً في احترام خصوصية وتجربة كل مجتمع إنساني وإطلاق مفهوم الحكم الرشيد أو الصالح أو الجيد الذي يركز على أسلوب إدارة الحكم ووضع معايير كمؤشرات لقياس مدى تحقيق الحكم لمخرجات تساهم في تنمية إنسانية مستدامة.

(٢)

يُعرّف البنك الدولي مفهوم الحكم الصالح بأنها: «الطريقة التي تباشر بها السلطة في إدارة موارد الدولة الاقتصادية والاجتماعية بهدف تحقيق التنمية».

أما الحكم الصالح من منظور التنمية الإنسانية فيقصد به: «الحكم الذي يعزز ويدعم ويصون رفاه الإنسان ويقوم على توسيع قدرات البشر وخياراتهم وفرصهم وحرياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لا سيما بالنسبة لأكثر أفراد المجتمع فقراً».

قام معهد البنك الدولي بوضع مؤشرات للإدارة الرشيدة والحكم الصالح لمساعدة الدول النامية والدول والمنظمات المانحة على تتبع أدائها وبيان مدى نجاح جهودها لبناء قدراتها وتحسين الإدارة الرشيدة وتعزيز الشفافية، إذ ينظر لها كمكون رئيس من مكونات التنمية المستدامة والمناخ الاستثماري السليم ويستند صندوق مواجهة تحديات الألفية Millennium Challeges Account إلى نتائج مؤشرات الإدارة الرشيدة في قراراته لتخصيص المساعدات للدول النامية الأقل دخلاً.

إن تلك المؤشرات هي رؤية حصيلة استقصاء أكثر من خمسة وعشرون مصدر مشغّل تابع لمنظمات عالمية مختلفة ومسوحات

قطرية أطلقت مؤشرات أو مبادئ للحكم هي: «المشاركة السياسية، المساءلة، الاستقرار السياسي، فعالية الحكومة، البنية الإجرائية، حكم القانون، محاربة الفساد».

ويبقى أن تلك المؤشرات أيضاً خاضعة لثقافة عالمية سائدة ومنتصرة حيث هيمنة الليبرالية السياسية والاقتصادية، ولذا أحسنت هيئة الأمم المتحدة ومن خلال منظماتها المتخصصة من جعل تلك المعايير أو المؤشرات هي حصيلة إبداع اجتماعي محلي وطني مستلهمة المقاربات والممارسات الإقليمية والعالمية الناجحة حيث ينص تقرير التنمية الإنسانية على: «إن بناء التنمية الإنسانية يتطلب إبداع اجتماعي، لا يقدر عليه إلا أهل كل مجتمع عربي لأنفسهم، بأنفسهم.

إن التقرير يكتفي برسم الملامح الرئيسية لما يمكن أن يعد رؤية إستراتيجية تنير الطريق لبناء التنمية الإنسانية، على أن تتعهدها القوى الحية في أي مجتمع عربي بالنقاش الجاد أولاً، واختلافاً حين يكون مبرراً».

إذاً فالمجتمع المدني العربي عليه أن يناقش مبادئ ومؤشرات الإدارة الرشيدة بعيداً عن النظرية السياسية: «الديمقراطية» ذات الدستور المنبثق من مفهوم حكم الشعب ومؤسساته

الحزبية النابعة من التطور التاريخي والسياسي والعسكري والفكري الغربي ممثلاً بالمدرسة الاجتماعية الليبرالية ونظريته الاقتصادية: «الرأسمالية».

(٣)

قلت سابقاً في «نظامنا السياسي»: أن النظام السياسي في الإسلام يقوم على مبدأين هما سيادة الشريعة الإسلامية فهو الإطار القيمي والفلسفي والأخلاقي للحكام والمحكومين وهو الحق المطلق الذي يرجعون له عند الفصل أو التخاصم والمتضمن كافة الحقوق والحريات الأساسية التي يحتاجها الإنسان والمبدأ الثاني هو العدل بإنفاذ المقدس الثابت المنصوص عليه أو اجتهاد الحاكم أو من ينيبه باستخدام الأدوات الأصولية في فقه التعزير أو المصلحة التي يتوصل لها الحاكم بقوة فضيلته السياسية وهي النسبة الأغلب من القرارات السياسية للحاكم أو المؤسسات التي ينشئها ثم ينيبها للممارسة وهي مقصود الشرع.

إن النظام السياسي السعودي يتمثل تلك السياسة الشرعية وهو النموذج المعاصر للتراث السياسي العربي والإسلامي كامتداد لدولة الإسلام من عصر الراشدين ثم بني أمية والعباسيين والعثمانيين.

إن النظام السياسي السعودي يرتكز في ممارسته السياسية على النظام الأساسي للحكم وهو دستور الدولة الذي يتكون من ثلاث وثمانين مادة وقد جاءت هذه المواد موزعة في تسعة أبواب:

- المبادئ العامة.
- نظام الحكم.
- مقومات المجتمع.
- المبادئ الاقتصادية.
- الحقوق والواجبات.
- سلطات الدولة.
- الشئون المالية.
- أجهزة الرقابة.

أن مفهوم الحكم الصالح هو بديل الديمقراطية وجوهر الحكم الصالح هو نظامنا السياسي في الإسلام وجوهر النظام السياسي السعودي هو النظام السياسي في الإسلام وعليه فإن جوهر النظام السعودي هو الحكم الصالح.

علينا كسعوديين أن نتصرف كأوصياء على النظرية السياسية السنية فنحن ورثة الكبار؛ لكن هذا الامتياز لجزيرة العرب يحمّلنا مسئولية البحث عن الأفضل بالتطوير والتحديث ونكون

كداهية القرن الرابع عشر الملك عبدالعزيز ابن سعود.. حيث يحكى أنه ذات يوم كان بحضرة بعض محبيه، فقال أحدهم: جعل الله يغيّر علينا يا عبدالعزيز.. ففزع القوم.. وبدءوا يناوشونه بالسبّ على أن ينتقلوا بعدها لشيء آخر!! بعد أن يرقبوا ردّة فعل الإمام كبير المجلس.. بل كبير الدولة.. بل كبير التوحيد بالتوحيد الكبير... الناس بطبيعتها أعداء ما تجهل ويخافون المستقبل.. إن الحكماء فقط يتريثون فيستمعون ثم يشاورون فيتخذون القرار وينفذونه في التوقيت المناسب.. فقال الإمام الكبير: ماذا تقصد؟ قال يا عبدالعزيز: أسأل الله أن يغيّر علينا للأفضل.. فضحك الجميع بعد أن فهموا بأن ليس كل تغيير يعني إنكاراً للمعاش أو تنكراً للماضي أو أن القادم أسوء..

(٤)

إن التحديات الثقافية الدولية التي تواجه نظامنا السياسي السعودي ممثلة بالمجتمع الدولي من هيئات ومنظمات رسمية وأهلية أو التحديات الإقليمية السياسية والعسكرية فضلاً عن تغير الداخل السعودي اجتماعياً حيث يمثل الشباب أكثر من (٦٠ ٪) من السكان يحتاجون فيه إلى خطاب سياسي قيمي ودولي معاصر، وبروز طبقة وسطى فاعله ومنفعلة فكرياً ما

حدا بالدولة وبنزعة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز التجديدية أن تجاري كل تلك التطورات عبر إطلاق مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني الذي ناقش ويناقش معضلات التنمية الإنسانية مباشرة مع القواعد الشعبية والمؤثرة ونقل ثقافة الحوار إلى المدارس السعودية ثم أنشاء هيئة حقوق الإنسان التي ترعى الحريات الأساسية وسبل ترسيخها كممارسة حياتية بالمجتمع السعودي في حين تضاعفت أعداد المنظمات الأهلية والخيرية إلى الضعف توازي معها دعم مبادرات طوعية للشباب والترخيص لمؤسسات نقابية وجمعيات أكاديمية كما حدث تطور تاريخي يحتاج إلى تعزيز عبر تنظيم الانتخابات البلدية والغرف التجارية والسماح للمرأة بالتصويت.

إن السعوديين لمسوا أثر تلك التنمية السياسية والارتفاع الكبير في هامش الحرية السياسية المنعكس في ارتفاع سقف الإعلام الوطني الرسمي والخاص وقد سمعتها من مسئول إعلامي خليجي كبير ومرموق وإذا تركت الأصوات الشاذة من هنا وهناك فالحقيقة العلمية تجعلك تُكبر ذلك النضج السياسي الذي مارسه السعوديين.

إن هذه المسيرة لا تحتاج لدعوات تنادي بالقفز على نظام الشورى إلى الديمقراطية أو التفكير بعيداً عن واقع علم الاجتماع السياسي والتفريق بين الرغبة والقدرة بل نحتاج إلى مأسسة أكبر لتظهير مفهوم الحكم الصالح عبر وزارة مختصة تسمى: «وزارة التنمية السياسية» تجمع فيها كل تلك الهياكل والمبادرات والأنشطة من أجل أن تعمل نحو رؤية سياسية منهجية موحده في إطار زمني محدد قابل للقياس والمراجعة والتقييم ثم التقويم على أن تطلع هذه الوزارة بالتحديث السياسي باجتراح معايير الحكم الصالح الخاصة بنا ومنها: «تطبيق الشريعة الإسلامية، والحسبة، والاستقرار السياسي، والزكاة، والآثار التوزيعية للاقتصاد، وجودة التعليم، وكفاءة الإدارة الحكومية، وفاعلية الرقابة، ومساهمة المؤسسات الطوعية» ما يحتاج إلى تضافر جهود علماء الشريعة الأصوليين ذو الخلفيات القانونية الدولية المتينة وكذلك كبار الساسة السعوديين نحو تظهير نظامنا السياسي القادر على استيعاب التحديات الدولية والإقليمية والمحلية ليس ذلك فحسب بل تقديمه في قوالب عصرية على أنه البديل الصالح للعالم العربي والإسلامي يقول د. عبدالحميد متولي في كتابه مبادئ نظام الحكم في الإسلام: «إن النهوض بالفقه الدستوري الإسلامي لا يمكن أن يكون سبيله الجمود والتقليد ولا يمكن بداهة أن يتم في العصر الحديث – عصر

التخصص - إلا على أيدي أساتذة متخصصين بالقانون الدستوري ممن جمعوا إلى جانب الثقافة القانونية الثقافة الفقهية الإسلامية».

(٥)

إن نظامنا السياسي السعودي حكم صالح يحتاج لتظهير بتعاون العلماء الربانيين المقاصديين وكبار الساسة تحت راية التوحيد وتوحيد الراية ليصبح مفخرة وطنية تُعمّق الانتماء ونموذجاً عالمياً مقنعاً مع ابتداع تقنيات حديثة للإدارة التنموية يقودها نبلاء مخضرمين وجدد يعززون الفضيلة السياسية فتنتج تنمية مستدامة تؤثر في المواطنين مباشرة بعيداً عن الديمقراطية التي هي في طور الأفول كصيرورة تاريخية إنسانية إما بسبب إفلاس داخلي أو فلسفي خارجي توّج باحتلال العراق وأفغانستان ومصادرة حرية المسلمين الدينية بأوربا وازدواجية المعايير الحقوقية ضد العرب بالانحياز العنصري للتوراة المحرّفة.



ثانياً: القيـــــم

الفكرة والقوة

(١)

نشأت السياسة منذ نشأت الجماعات البشرية الأولى ثم القرية فالمدينة، حين أقام ثم استوطن ذلك الإنسان رقعة جغرافية محددة بدافع تحقيق إشباع حاجاته الأولية الأساسية «الضروريات» وأبرزها الطعام والأمن قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ سورة قريش، أضف إليها الحاجات التحسينية التي تتعطل حياة الإنسان بفقدانها مثل التعليم والصحة والعمران والنقل.

ناهيك من أن الإنسان اجتماعي بطبعه فقد ألف التجمع فاحتاج تبعا له للتنظيم وتقسيم العمل، فكانت السياسة يتولاها رئيسا يتمتع بقوة القبول أو القهر يقول «أرسطو» في كتابه «السياسة»:«إن الدولة هي من عمل الطبع وإن الإنسان بالطبع كائن اجتماعي.. وإن الذي يبقى متوحشا بحكم النظام لا بحكم المصادفة هو على التحقيق إنسان ساقط، أو إنسان أسمي من النوع الإنساني».

تعرف السياسة اصطلاحا بأنها: «فن ممارسة القيادة والحكم وعلم السلطة أو الدولة».

وتعرفها الموسوعة السياسية للكيالي بأنها: «النشاط الاجتماعي الذي ينظم الحياة العامة لضمان الأمن وإقامة التوازن والتوافق من خلال القوة الشرعية».

(٢)

إن السياسة قوة شرعية تستمد قبولها من قوة الرئيس ذاته وأتباعه، وقوة الفكرة العادلة التي يؤمنون بها. فكلما قوى الرئيس وأتباعه وضعفت الفكرة العادلة كان حكما جبريا، والفكرة بلا رئيس وأتباع أقوياء إيمانا فرديا قاصرا.

إن أعظم فكرة سياسية هي تلك المنبثقة عن الفكرة الكبرى القديمة قدم الإنسان ذاته وهي عله وجوده قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات آية ٥٦، وهذه الفكرة الأزلية لها طريق واحد هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ سورة آل عمران آية ١٩، وهذا الإسلام له نظام قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ سورة ص آية ٢٦.

(٣)

الفكرة عند أي مجدد هي رؤية، والرؤية نخبة، والنخبة مشروع.. تكون عظيما عندما تنقل الفكرة فيؤمن أو يعجب بها الآخرون، فما بالك إذا كان الآخرون هم الملأ أصحاب القوة فتختصر الزمن محققا نتائج كاسحة لصالح الإيمان فتفوز بسؤدد الدنيا ونعيم الآخرة. إن الفكرة تحتاج بين حين وآخر إلى مجددين مؤمنين وواثقين بالنهاية الحاسمة، ويفهمون فهما بسيطا وعميقا سر الخلق، ويدركون الأولويات السَنَيَة ثم ليس لديهم شيء يخسرونه.. إنما أمرت لأعبد الله رب العالمين.. نعم إنها الفكرة السلفية القديمة في الشكل والمضمون في اللغة والمعنى.. من هؤلاء مجدد الفكرة في الجزيرة العربية الإمام محمد بن عبدالوهاب الذي قال عنه الأديب والمفكر السوري «أدونيس» في تقديمه لسلسلة ديوان النهضة يقول: «التوحيد هو الأساس الذي تقوم عليه آراء الإمام محمد بن عبدالوهاب وهو البؤرة التي ينطلق منها والمدار الذي تحرك فيه؛ ولكي نفهم النظرة الوهابية إلى الإنسان والعالم علينا أن نفهم بادئ ذي بدء نظرتها إلى التوحيد» ثم قال: «التوحيد كما ترى هذه النظرة هو أن نعلم أن الله يتفرد بصفات الكمال المطلق وأن نعترف بهذا التفرد لله وحده بالعبادة. إنه إذن يتضمن توحيد أسماء الله وصفاته وتوحيد الربوبية وتوحيد العبادة: نثبت ما أثبته الله لنفسه من

الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة بمعانيها وأحكامها، لا ننفي ولا نعطل ولا نحرف شيئا منها، ننفي تبعا لذلك ما نفاه عن نفسه، معتقدين أنه وحده الخالق الرازق المدبر.

هكذا يتم لنا الإيمان بأن التوحيد أصل الأصول وأساس الأعمال وبأنه حق الله الواجب على البشر وبأن المقصود الجوهري من دعوة الرسل كلهم إنما هو الدعوة إليه» ثم يقول: «إن يؤمن الإنسان بالتوحيد هو إذن أن يكمل نفسه، ولا بد أن يقترن هذا الإكمال بإكمال الغير أي بالدعوة إلى شهادة التوحيد: «لا إله إلا الله».. ولهذه الدعوة مستويات من حيث أن كل موحد يدعو بحسب قدرته قولا وعملا.

في هذا ما يؤكد أساسيا على الممارسة، فالتلفظ بالتوحيد أو معرفة معناه والإقرار به والدعوة إليه فحسب أمور لا تكفي، وإنما يجب أن تقترن بالكفر بما يعبد من دون الله قولا وعملا والبراءة منه، ولهذه البراءة وجهان: الأول هو محبة الموحدين وموالاتهم ونصرتهم والثاني بغض المشركين ومعاداتهم، هكذا يتم التطابق بين العلم والاعتقاد وبين العقل والعمل».

إذاً هذه الفكرة السلفية التي قرأها بإنصاف أديب حداثي فيما أهل الأهواء والفرق والشهوات قرؤوها قراءة ساذجة متصيدين ممارسات خاطئة.

(٤)

إن الفكرة تحتاج إلى القوة كي تصبح مشروعا والقوة تحتاج إلى المشروعية يقول ابن المعتز: «الدين بالمُلك يقوى والمُلك بالدين يبقى؛ فبقاء المُلك بظهور الدين وظهور الدين بقوة المُلك».

يصف الجزيرة العربية قبل تجديد الفكرة، الدكتور سليمان الغنّام فيقول: «انحدرت الأمة انحداراً رأسيا ربما لم تشهده في تاريخها لهذين العاملين آنفي الذكر: السيطرة الأوربية من الجنوب والشرق والهيمنة العثمانية من الداخل فساد الجمود وتعطل الفكر وأصبح العلماء -اصطلاحا- حفظة نصوص ينسخون ويترجمون لأسلافهم العظام وأصبحت شعائر الدين طقوسا تؤدى ليس لها من تأثير على حياة الإنسان كفرد وكمجتمع.

في هذه البيئة خرج الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدعوته الإصلاحية داعيا الأمة إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كان يمكن أن تتلاشى دعوة ابن عبدالوهاب كما تلاشت سياسيا على الأقل دعوات أمثاله -من قبله ومن بعده- ابن القيم، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، إلا أن سيف ابن سعود شيخ الدرعية وموقع المنطقة السياسي والجغرافي.. كفل لها فسحة من الزمن مكّنتها من التأثير والتغلغل في البيئة التي خرجت منها.

(٥)

إن مشروع الفكرة والقوة كي يصبح واقعا مؤسسيا معاشا.. يحتاج إلى أمرين: شوكة العصبية من أجل استقرار الحكم وانتظام أمور الدين والدنيا يقول المصطفى -صلى الله عليه وسلم: «الأئمة من قريش» أخرجه أحمد، يقول ابن خلدون: «إن الأحكام الشرعية لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لأجلها، ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشرع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي ﷺ كما هو المشهود، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا كما علمت، فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصود من شرعيتها وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون لها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها».

أما الأمر الثاني فهم الأعوان من تكنوقراط -مستشارين وكبار موظفين- وهم فرسان يتسمون بالنبالة أو بلغة اليابان«البو - شي - دو» الذين التزموا «وصايا النبالة»: ‹الاستقامة أو العدل، الشجاعة وروح الجسارة والتحمل، الرحمة والتعاطف، اللطف والتهذيب، الصدق والإخلاص، الشرف، وواجب الولاء» إن

هؤلاء النبلاء يتصرفون بمسؤولية كبرى كأنما كل حجر ومدر وبشر من الوطن هو جزء منهم يحدثونك عن الماضي بإباء وعن المستقبل بأمل، الأكيد أنهم يمشون على الأرض واثقين بالله.. ثم بالقيادة يقول «مونتسكو»: «إن عماد النظام الديمقراطي الصوت الانتخابي وعماد النظام الشمولي القهر وتملك وسائل العنف، أما النظام الملكي فعماده النبلاء».

(٦)

إن العالم اليوم، والعالم العربي بالتحديد، يشهد صراعا عقائديا فكريا وآخر اقتصاديا؛ ما ينذر بإعادة تشكل تضع القوة والفكرة والعصبية والأعوان في السعودية أمام امتحان جوهري وتاريخي في قدرتنا على التمسك بثوابت المعادلة والانفتاح بمرونة على متغيرات العالم، والانتقال بسلاسة إلى المستقبل في إطار مشروع نهضة موحد بقيادة كبيرنا خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز.

السلفية بيتنا

إن السلفيـة هـي الطريقة التـي خاض من أجلها مجـددو الأمة ومصلحوهـا حتـى لا يطغـى العقـل علـى النقـل ولا يصـادر النقل العقل.

(١)

يخطئ من يعتقد أن السلفية بالمملكة العربية السعودية دعوة دينية، بل هي دعوة دينية اجتماعية سياسية، هذا هو الموجز وإليك المقال بالتفصيل:

تعني السلفية في اللغة: التسوية، أو من مضى وتقدم فسلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته. أما في الاصطلاح فيقول الإمام الشهر ستاني في المِلَل والنِّحل: نتكلم ها هنا في معنى: «الدين» و «الملة» و «الشرعة» و «الجماعة» فإنها عبارات وردت في التنزيل ولكل واحد منها معنى يخصها، وحقيقة توافقها لغة واصطلاحاً وقد بينا معنى «الدين»: أنه الطاعة والانقياد، وقد قال الله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ آل عمران، ولما كان نوع الإنسان محتاجاً إلى اجتماع مع آخر من بني جنسه، في إقامة معاشه، والاستعداد لمعاده، وذلك الاجتماع يجب أن يكون

على شكل يحصل به التمانع والتعاون حتى يحفظ بالتمانع ما هو له، ويحصل بالتعاون ما ليس له، فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هي: «الملّة» والطريق الخاص الذي يوصل إلى هذه الهيئة هو: «المنهاج» و «الشرعة» و «السنة» والاتفاق على تلك السنة هي: «الجماعة»، قال تعالى: ﴿لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾، المائدة.

ويراد بالسلف اصطلاحاً الصحابة والتابعون لهم بإحسان وتابعوهم وأئمة الإسلام العدول ممن اتفقت الأمة على إمامتهم وعظم شأنهم في الدين وتلقى المسلمون كلامهم خلفاً عن سلف بالقبول، يقول النبي ﷺ «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» أخرجه البخاري، والخيرية هنا خيرية التطبيق «للمنهاج» و «الشرعة» و «السنة». يقول الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–: «السلفية هي اتباع منهج النبي ﷺ وأصحابه لأنه من سلفنا الذين تقدموا علينا فأتباعهم هم السلفيون». إن أهل السنة والجماعة هم متبعو منهج النبي ﷺ وأصحابه وهم السلفيون من بين طوائف الإسلام الأخرى.

(٢)

إن السلفية هي الطريقة التي خاض من أجلها مجددو الأمة ومصلحوها حتى لا يطغى العقل على النقل، ولا يصادر النقل العقل، أو أن تطغى الخرافة والحكايا والأسطورة على الحقيقة، أو أن تقصي الحقيقة الوحي والنبوة.

إنها العودة إلى الرحمة التي ما بعدها إلا الفرقة والغربة والعذاب، يقول النبي ﷺ: «إن الله إذا أراد رحمة أمة، قبض نبيها فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها» أخرجه مسلم، ومن أولئك المجددين الذين طالبوا بعودة الناس إلى عقلهم المنضبط بمنهج السلف، الإمام محمد بن عبدالوهاب (١١١٥ هـ - ١٢٠٦هـ)، الذي قال كما قال نبيه ﷺ: «لا معبود بحق إلا الله»، فلن تدرك أهمية تلك الحقيقة إلا إذا عاد بك الزمن ثلاثمائة سنة للوراء كما عاد الأديب الكبير طه حسين الذي في دياره «مصر» ندوة تعقد الآن تساوي بين الوهابية والصهيونية، يقول الأستاذ عن دعوتنا: «قلت: إن هذا المذهب جديد وقديم معاً، والواقع إنه جديد بالنسبة للمعاصرين ولكنه قديم في حقيقة الأمر؛ لأنه ليس إلا الدعوة القويمة إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية، هو الدعوة إلى الإسلام

كما جاء به النبي ﷺ خالصاً لله وحده، ملغياً كل واسطة بين الله والناس، هو إحياء الإسلام وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب!!.. ولكن الذي يعنينا من أمر هذا المذهب أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب، وقد كان هذا الأثر عظيماً وخطيراً من نواحٍ مختلفة، فهو قد أيقظ النفس العربية ووضع أمامها مثلاً أعلى أحبته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان، وهو قد لفت المسلمين جميعاً، وأهل العراق والشام بنوع خاص، إلى جزيرة العرب».

وفي كتابي: السلفية بيتنا «تحت الطبع»، الذي نقلت فيه آراء العلماء والأدباء في الإمام محمد بن عبدالوهاب والدعوة السلفية يقول السيد بلجريف: «والمكانة التي يحتلها محمد بن عبدالوهاب في الدين الإسلامي هي الطابع الصحيح للإسلام نفسه.. أشير إلى فكرة غير صحيحة وهي أن كثيراً من المؤلفين يطلقون على هذه المرحلة من الإسلام: «الحركة المحمدية» ويقارنون هذه المرحلة بالحركة الدينية التي حدثت في أوربا خلال القرن السادس عشر وتسمى حركة «الإصلاح» بقيادة مارتن لوثر حين أسس البروتستانتية منشقاً عن الكثالوكيه... والواقع أن المغزى المتبادل بين الإسلام والوهابية والمغزى

المتبادل بين المسيحية بصفة عامة والبروتسنتية العقدية لا سبيل لإيجاد أي نوع من التوازي أو التماثل بينهما.. فالمصلح الوهابي هو الذي وضع تصميم إعادة عقارب ساعة الإسلام إلى نقطة بدايته، ومن هنا يكون قد أبلى بلاء حسناً، والسبب في ذلك أن هذا العقرب قُصد له أن يكون ثابتاً منذ البداية، والإسلام في جوهره ثابت ومستقر وصمم ليبقى هكذا».

(٣)

هذا عن الدعوة الدينية أما عن الاجتماع الأنثروبولوجي فنحن بالجزيرة العربية أصل العرب، وأمة العرب أمة روحانية لا يمكن أن تعيش بلا دين، فإما الإسلام على منهج السلف أو أي شيء آخر باستثناء العلمانية. يقول الإمام الشهر ستاني ذاته: «ومنهم من قسم - العالم - بحسب الأمم فقال كبار الأمم أربعة: العرب، والعجم، والروم، والهند، ثم زاوج بين أمة وأمة؛ فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق، واستعمال الأمور الروحانية. والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد، وأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء والحكم بإحكام الكيفيات والكميات، استعمال الأمور الجسمانية».

أما عن الاجتماع المدني فيقول عالم السياسة الشرعية البارز «د. رضوان السيد رئيس الهيئة الاستشارية لمركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي»: لقد حفلت بدايات الاجتماع العربي القديم بقضايا البحث عن جذر لا يسوغ الاجتماع فقط، بل يؤسسه بحيث يمكنه الاستمرار، وكان إبراهيم وكانت حنفيته ذلك الرمز الموحّد الذي يشهد على حضوره، حضور البيت بمكة، وإذا كانت العشيرة كافية لتأسيس حي أعرابي، وكانت القبيلة كافية لتأسيس قرية، فإن العشيرة والقبيلة لم تكونا كافيتين لتأسيس اجتماع مديني. إن الاجتماع المديني يقتضي ديناً أو نصاً من خارج يتساوى الجميع في ظلّه، فيوحّد، ويضبط، ويشرع، وتنفسح آفاقه فوق روابط الدم، والجغرافية والاقتصاد التجاري أو الزراعي فتكون المدينة».

(٤)

هذا عن الاجتماع الأنثرو بيولوجي والمديني أما عن السياسي فيقول المفكر السوري «ميشيل كيلو» في مقالته بجريدة السفير اللبنانية: «جاء الإسلام كفكرة جامعة مكّنت القبائل من تخطي حالة التمزق القاتلة عندما نقل مركز الجماعة القبلية العربية من الأرض إلى السماء، وجعل علاقات الفرد لا تتعين بقبيلته بل

بدينه كفكرة جامعة وموحدة تساوي جميع الأفراد أمام منظومة معايير أخلاقية وسلوكية جديدة حلت محل المعايير القبلية التي فرقتهم ووضعتهم في مواجهة دائمة بعضهم مع بعض، ونقلت مكان السلطة والإدارة من شيخ القبيلة إلى صاحب الدولة الخليفة الراشد ثم الملك. بذلك أتت الفكرة الجامعة بانقلاب طاول ثلاثة مجالات مقررة: علاقة الفرد بحقله الروحي، وعلاقته بحقله المجتمعي، وعلاقته السياسي، وأحلت في المحصلة النهائية هوية عليا جامعة يمكن أن يعاد في ضوئها تعريف وتعيين مختلف جوانب وجودهم». أما عن صاحب الدولة «الملك» فيقول ابن المعتز: الدين بالملك يقوى، والملك بالدين يبقى، فبقاء الملك بظهور الدين، وظهور الدين بقوة الملك.

وكعب الأحبار يقول: مثل الإسلام والسلطان والناس كمثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد؛ فالفسطاط الإسلام، والعمود السلطان، والأطناب والأوتاد الناس، لا يصلح بعضها إلا ببعض.

(٥)

أخي المسلم المبتدع أو العربي الضال أو السني الحزبي أو المذهبي المعلّب، والحامل لتصورات خاطئة.. خلقتها لنفسك ثم صدقتها. إن السلفية ليست عالماً له اجتهاده الخاص فجعل الفروع أصولا وأدخل الفقه في العقيدة، أو دعياً مستثمراً لها، أو مناطقياً مأفوناً يربط بين الدم والدين، أو منكراً منفعلاً، أو جماعة منزوية تفرض الوصاية على الناس فتقدس الأقوال والأشخاص.. أو أولئك الخوارج الجدد الذين حاربناهم بالسنان والبيان وآخرها بيان هيئة كبار علمائنا حول الإرهاب وتمويله.

أخي.. إن السلفية ليست كذلك فهي أكبر بكثير منك ومنهم، فإن استهدفت أياً من أولئك الاستثناء فالله يقويك، أياً يكن غرضك عندها، فنحن المستفيدون في النهاية، وإن كنت تستهدف نظامنا العقدي والاجتماعي والسياسي فالله يقوينا عليك، وحينئذ عليك أن تستعد لمواجهة تسعة عشر مليون سعودياً، ومن ورائنا مئات الملايين من المسلمين الذين يعشقون الأرض والرسالة، وأنصحك بألا تحاول فنحن معنا الله، ثم ممارسة وتجربة إنسانية فريدة شهد لها من قرأت لهم آنفاً، خلالها سقطنا وقمنا، تبعثرنا وتجمّعنا، ذهبوا وبقينا.

التجديد الذي نريد

(١)

جاء في مختار الصحاح تجدَّد الشيء: صار جديداً، و «أجدَّه» و «جدَّده» و «استجدَّه» أي صَيَّرَهُ جديداً، بمعنى جعل القديم جديداً أو أعاده إلى حالته الأولى، جدَّد الثوب بمعنى أعاده إلى أول أمره.

قال النبي ﷺ: «يبعث اللّه على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» أخرجه أبو داود.

قال ابن كثير في جامع الأصول: «تكلموا في تأويل هذا الحديث وكل أشار إلى القائم الذي هو من مذهبه وحمل الحديث عليه، والأولى العموم فإن: «من» تقع على الواحد والجمع ولا يختص بها الفقهاء؛ فإن انتفاع الأمة يكون أيضاً بأولي الأمر وأصحاب الحديث والقراء والوعاظ، لكن المبعوث «المجدد» ينبغي كونه مشاراً إليه في كل هذه الفنون».

لقد ذكر علامة التنوير السلفي السيد رشيد رضا نماذجاً من أولئك المجددين فقال: «إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين وهدموا من

بنيان العدل بين الناس، فكان الإمام عمر بن العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بني أمية واخلقوا، وما مزقوا بالشقاق وفرّقوا، وكان الإمام أحمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما أخلق بعض بني العباس من لباس السنة ورشاد سلف الأمة باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله، وما ورد في عالم الغيب بالقياس على ما يتعارض في عالم الشهادة».

إن التجديد قد يكون تجديداً خاصاً بدولة دون أخرى بحسب أولويات الإصلاح زماناً ومكاناً، فقال رشيد: «وظهر مجددون آخرون في كل قرن، كان تجديدهم خاصاً انحصر في قطر أو شعب أو موضوع كبير أو صغير؛ كأبي إسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الأندلس، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند، والمولى محمد بن بير علي البركوي في الترك، والشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن».

إن التجديد يمتد إلى كافة التخصصات والعلوم فلا يقف عند التجديد الديني وإن كان الأظهر. فقال رشيد: «وهناك مجددون آخرون للجهاد الحربي بالدفاع عن الإسلام أو تجديد ملكه وفتح

البلاد، وإقامة أركان العمران فيه، وهم كثيرون.. كبعض خلفاء العباسيين والأمويين، ومنهم من جمع بين أنواع من التجديد، كالسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الإفرنج المتحدة وأجلاهم من البلاد الإسلامية المقدسة وغيرها، وأزال دولة ملاحدة العبيدين «الفاطميين» الباطنية من البلاد المصرية».

(٢)

للتجديد الصحيح شروط عدة منها ما هو متعلق بالمبادئ، وأخرى متعلقة بالممارسة ومنها:

- أن ينطلق التجديد من توحيد الله عز وجل القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (٤٨)﴾ النساء. وقال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾لقمان. إن النصب والتعب والتعذيب الذي قد يتعرض له المصلح أو المجدد على خلاف التوحيد لا يبرّر له القبول الربّاني، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾ الغاشية.
- أن يكون التجديد متبعاً للسنة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وقد ذكر صاحب عون المعبود

شـرح سـنن أبـي داود: «إن شـرط المجدّد أن يبـين السنة مـن البدعة ويكثر العلم ويُعز أهلـه، ويقمع البدعة ويكسر أهلهـا، ومن لا يكون كذلك لا يكـون مجدداً البتة، وإن كان عالماً مشهوراً بين الناس مرجعاً لهم».

- أن يدعـوا التجديـد لوحدة الجماعـة وألفتهـا لا فرقتهم ووحشتهـا وتجزئتهـا قال تعـالى: ﴿وَاذْكُـرُوا نِعْمَـتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُـمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (١٠٣)﴾ آل عمران. وقال ﷺ: «إن اللّه لا يجمع أمتي أو قال: أمة محمد على ضلالة ويد اللّه مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار» أخرجه الترمذي.
- أن يسلـك المجـدد منهج الاعتدال «الوسطيـة» بأن لا يكون سبيلـه الجمـود والتقليد والتخندق بالماضـي فيعزل نفسه ويدعـو غيره لهـا، بـل سبيله الانفتـاح والتغيـير فيحاكي التحضّـر والتطـور الإنسـاني العقلـي؛ بأن يفقـه عصره فيحترم السنن الكونية ومنتجات الدنيا من تحديث وإدارة وعمران.
- إن الوسائـل تأخـذ حكم المقاصـد فيلزم أن تكـون وسيلة التجديد شرعية، ويتحتم إذا كان النظام السياسي شرعياً، عـن تميـم الداري قـال: قـال ﷺ: «الديـن النصيحة. قلنا: لمن؟ قـال: «للّه، ولكتابه، ولرسولـه، ولأئمة المسلمين

وعامتهم» أخرجه مسلم. ثـم إن النصيحة المعتبرة شرعاً لـولاة الأمر ينـدب أن تكون للعلماء وطلاب العلم وأصحاب الخبـرة والحنكة والفضل.

- أن يغلـب على ظـن المجدد النجـاح في دعوتـه «الحساب» فتـؤدي إلى إحداث تغيـير ثقافي اجتماعـي مقنع وممكن وواسـع يدفع باتجـاه حركة البنـاء والعمـران والازدهار، فيكسـب المدعـوون خـيري الدنيـا والآخرة، يقـول مجدد عصـر النهضة العربية الإسلامية الأستاذ محمد عبده في مقالتـه: خطأ العقلاء: «إن كثيراً من ذوي القرائح الجيدة إذا أكـثروا مـن دراسـة الفنـون الأدبيـة ومطالعـة أخبار الأمم وأحوالهـم الحاضرة تتولد في عقولهم أفكار جميلة، وتنبعـث في نفوسهـم همم رفيعـة، تندفـع إلى قول الحق وطلب الغاية التي ينبغي أن يكون العالم عليها.. وإنهم وإن كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حـد ذاته، وارتفاع الهمة، وانبعـاث الغيرة، لكنهم أخطئوا خطأ عظيماً، من حيث إنهم لم يقارنوا بين ما حصّلوه وبين طبيعـة الأمة التي يريـدون إرشادهـا، ولم يختبروا قابلية الأذهـان واستعـدادات الطبـاع للانقيـاد إلى نصائحهم واقتفاء آثارهم».

(٣)

مرّ العالم العربي بتجارب إصلاحية أخذت مناحي عدة منها:

التجربة الليبرالية «العلمانية» العربية:

ظهرت الليبرالية العلمانية كتطور تاريخي أوروبي ضد الكنيسة التي شرّعت العدوان والنهب والسرقة عبر البحار «الاستعمار»، فيما تعسفت بالداخل المسيحي لتعزيز مواردها المالية باستخدام صكوك الغفران، فظهر بسبب ذلك اتجاهان لإصلاح الكنيسة: الأول: ينادي بضرورة أن يقوم رجال الدين أنفسهم بإصلاحها من المفاسد التي لوثتها وعلى رأس هذا الاتجاه الراهب الهولندي أرز موس، أما الثاني: ينادي بضرورة أن يفرض الإصلاح على الكنيسة فرضاً على أيدي رجال الدين من خارجها بإخضاعها للسلطة المدنية «الزمنية»، وعدم احتكار تفسير الكتاب المقدس من البابا، وإباحة زواج القسس وحق الطلاق للنصارى، وعلى رأس هذا الاتجاه: مارتن لوثر، زونجلي، كلفن، وسمي هؤلاء بالبروتسنانت «المحتجين».

قامت بسبب هذا الانقسام؛ الحروب الدينية وذهب ضحيتها آلاف على يد محاكم التفتيش حيث قتل عام ١٥٧٢م مئة ألف مسيحي بروتستناتي، فيما بلغ ضحايا الكنيسة حتى نهاية القرن الثامن عشر تسعة ملايين، ثم جاءت الثورة الفرنسية

كنتاج لعنصر الأنوار عام ١٧٨٩م لتقضي على السمو الكنسي تماماً الذي أعلنه غريفوري السابع (١٠٧٢م - ١٠٨٥م) من أن الكنيسة هي صاحبة السيادة في العالم كله، وأنها تستمد نفوذها من الله مباشرة، وأنها معصومة لا تخطئ ولا تضل أبداً.

جاء الليبراليون العلمانيون العرب للسلطة على حساب الأنظمة الملكية في مصر عام ١٩٥٢م، وفي تونس عام ١٩٥٧م وفي ليبيا عام ١٩٦٩م مسقطين التطور التاريخي الأوروبي على التاريخ العربي الإسلامي بكامله في حين إن فساد الولاة والعلماء، وتردي الأوضاع السياسية والاقتصادية كانت مرحلة زمنية معينة لا تستدعي التخلي عن النظام السياسي الإسلامي.

كما حضت تلك النخب الفكرية والسياسية والعسكرية بدعم الاتحاد السوفيتي سابقاً، والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا في نفاق بغيض حيث الممارسة الليبرالية العلمانية الإنسانية داخل دولهم، فيما الإعلان عنها خارجياً في وسائل الإعلام والمنظمات الحقوقية، مع دعم بيّن للظلم والقهر لكرامة الإنسان العربي حينما تقتضي مصالحهم ذلك.

لقد ثار أهلنا في تونس ومصر وليبيا على أنظمة الحكم الفرد العلماني العسكري وأرجعوا عقارب الساعة للوراء كما يجب أن تكون منذ أن صدح بها الصالحون الأحرار في جزيرة العرب: «لا معبود بحق إلا الله».

تجربة الخوارج الجدد:

يمارس خوارج العصر الحديث التكفير، ثم إعلان الجهاد ليس لتحرير القدس بل بالإيغال في دماء المسلمين أو الذميين أو المعاهدين المعصومة، سعوا فيها لاستنزاف طاقة الأمة الباقية من التخلف، وتحالفوا من حيث لا يعلمون - الجهل والحماقة وضعف النظر - مع قوة الاستعمار الاقتصادي الجديد، فأفسدوا حيث أرادوا أن يصلحوا، لقد حذرنا النبي ﷺ منهم بقوله: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يرى شيئا، وينظر في القدح فلا يرى شيئا، وينظر في الريش فلا يرى شيئا، ويتمارى في الفوق» أخرجه البخاري.

إن تنظيمات ما سمي بالجهاد المصادمة لقوانين التجديد والتغيير أرادت بسذاجة الانقلاب فحصدوا فشلاً ذريعاً، فهم إما في السجون أو قتلوا وفي ذمتهم أرواح آلاف الأبرياء، وتركوا لنا إسلاماً مطارداً بالعالم بتهمة الإرهاب، فأرجعوا الدعوة الإسلامية كثيراً.. إن هذا الإصلاح البدعي هذا نتيجته.

تجربة الليبراموبين:

أقدّر عالياً بعض المسلمين العرب الذين تأثروا بقيم الحرية والعدالة والمساواة، ووجدوا في الفكر التنويري الأوربي مكاسب إنسانية، فأرادوا التجديد بأن يكسبوا للنظام السياسي والاجتماعي في الإسلام قوة إضافية، وتجد هؤلاء حريصين على توحيد الله في السماء وتوحيد الناس في الأرض ومخلصين لقضية حقوق الإنسان ونصرة الضعيف والمظلوم، فتقاطعت بعض مفاهيمهم مع مفاهيم عامة في الليبرالية الغربية.

بينما على الجانب الآخر لقطاء لليبرالية الغربية سطحيو الفهم، انشغلوا بالسهر ليلاً وأشغلوا الناس بقضايا شكلية وفرعية نهاراً يدّعون المظلومية ويتحالفون مع أصحاب المظلومية الدائمة والطويلة عبر التاريخ، همّهم التأليب والشكوى والتّذمر والصراخ والعويل، وهم ممكنون في بعض وسائله يجتزئون التسامح والحوار ويحرمونه في ذات الوقت على خصومهم، والحمد للّه فبالرغم من زعيقهم المجلّجل إلا أن حضورهم شعبياً ضعيف للغاية؛ فالناس لا تفهمهم وهم لا يفهمون الناس، يقول الأستاذ الدكتور عبدالله الغذامي عن هذه الفئة القشيرية: «إنهم سذج ومشوشون ومتناقضون ولا يؤمنون إلا بحريتهم هم

فقط، وهم بلا مشروع ولا خطاب سياسي، ويمارسون تزييف الوعي ويرتكبون فضائح في تصرفاتهم، ومحاولة حجرهم على حريات الآخرين».

تجديد العلماء:

إن التجديد الصحيح هو من اكتمل فيه شروط الإصلاح السني التي ذكرتها آنفاً فهي المدخل الشرعي والعقلي، ويتأكد هذا في المملكة العربية السعودية لأسباب دينية وأخرى اجتماعية واقعية، ومن أولئك المصلحين المجددين الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز «رحمهم الله» الذين حموا وحدة النظام السياسي بأن قالوا لعامة المسلمين في الأزمات ما قاله النبي ﷺ؛ فعن نافع مولى ابن عمر قال: جاء عبدالله بن عمر إلى عبدالله بن مطيع حين كان من أمر الحرّة ما كان، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبدالرحمن وسادة فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعه مات ميتة جاهلية» أخرجه مسلم.

ثم حموا مصالح الناس فعبروا عنها بقوة وبأدب جمّ في مجلس مغلق، ويعلم الولاة أن هؤلاء صادقون فيذكر العلماء السلطان بقولهم: عن الحسن قال: عاد عبدالله ابن زياد، معقل بن يسار المزني في مرضه الذي مات فيه فقال معقل: إني محدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لو علمت أن لي حياة ما حدثتك له، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة» أخرجه مسلم.

ثم يحفز هؤلاء المخلصون المتعففون السلطان بقولهم: عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، كلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» أخرجه مسلم.

(٤)

إن تجربتنا السعودية ذات الثلاثمائة عام من عقدنا الاجتماعي بين الولاة والعلماء والأفاضل وعامة المجتمع الأبي الكريم تجعلنا واثقين أن قدرنا - بحوله وقوته - النجاة والمثابرة والبناء، كلٌّ حسب طاقته وتأثيره فنجعل من المحنة منحة، ومن الأزمة فرصة فكلنا راعي وكلٌّ مسؤول عن رعيته.

اليمن وعمقنا القومي

(١)

إن شبه الجزيرة العربية هي المهد الأول للأقوام السامية، يقول جوستان جاردير: «إن الساميين يأتون في الأصل من شبه الجزيرة العربية»، وقد هاجروا إلى شمال شرق الجزيرة العربية واستوطنوا العراق، وهم الآكاديون واتحدوا مع السومريين ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد فأنشأوا مملكة عظيمة بقيادة سرجون الآكادي، ثم اشتُق منها الحضارتان البابلية والآشورية، بعدما هاجر الكلدان والعموريون الآراميون «الساميون» من شمال الجزيرة العربية إلى بلاد ما بين النهرين «العراق».

من الشعوب التي هاجرت من الجزيرة العربية شمالاً إلى بلاد الشام العاموريون، كما ذكرت، والكنعانيون إلى فلسطين وانفصل عنهم الفينيقيون في لبنان، والأنباط في شمال غرب السعودية.

أما من بقي من الساميين في شبه الجزيرة العربية فهم العرب.

(٢)

قسَّم علماء اليونان والرومان بلاد العرب إلى ثلاثة أجزاء؛ فدعوا القسم الأول بلاد العرب السعيدة «اليمن»، والثاني بلاد العرب الحجرية -بلاد العرب البترية- والثالث بلاد العرب الصحراوية.

ومع وبعد الفتح الإسلامي هاجر العرب من شبه الجزيرة العربية في موجات كبيرة إلى العراق والشام، ثم مصر وليبيا ومراكش وإسبانيا غرباً، وما بقي من كل الساميين والعرب هم العرب التاريخيون في شبه الجزيرة العربية والشاملة على المملكة العربية السعودية وجمهورية اليمن وسلطنة عمان والإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين والكويت، أضف إلى ذلك قبائلنا وعشائرنا العربية في شمال شبه الجزيرة العربية في العراق وسورية والأردن، فنحن وهؤلاء نحمل ذات التراث النفسي والعقلي والمظهر والشكل الخارجي الواحد، إن كل هذه الوحدة صنعها التاريخ والجغرافيا والنشأة الأولى، وهي راسخة مع تبدل الدول والسياسات والمصالح، ثم جاء التوحيد العقدي وشدّ من وثاق وحدة البشر بتوحيد رب البشر.

(٣)

إن اليمن من قومنا الذي زكَّته النبوة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية» أخرجه مسلم، و فوق الإيمان والحكمة: الشجاعة والكرم العربيان.. إن هاتك وتلك جاءتا من التاريخ الغابر المجيد لأمتنا، سبأ وحمّير وكهلان ومعين وقتبان وحضرموت، ثم اختلط الدم بالدم فجاءت حضارة جنوب ووسط الجزيرة العربية طسم وجديس وكِندة، ثم التقي البأسان معا بعد النبوة ووظفا التاريخ والجغرافيا والثقافة لصالح الدين الحنيف، إننا سنكون أوفياء لتاريخ مشترك عمره ٥٠٠٠ سنة، كيف لا والتحديات أمامنا كبيرة، بدءا من الإرهاب والشعوبية بقيادة الفرس الساسانيين الجدد والتدخل الأجنبي بقيادة البيزنطيين الجدد، فضلا عن تطلعاتنا للتنمية المستدامة وتحقيق الرضا والسعادة لجزيرة العرب، وعلى الآخرين أن يحترموا خصوصياتنا ويسمعوا لصوت العقل والحكمة حينما قال الفيلسوف سقراط قبل ٢٤٠٠ عام للإسكندر المقدوني بعدما قرر إسقاط فارس انتقاما لاغتيال أبيه «غيلة»، وهي عادتهم حتى يومنا هذا: «إياك وجزيرة العرب فإنهم قوم أُنف ذو بأس يعرفون أرضهم جيداً».

إننا لن نخضع لرأي من هنا أو هناك معلّب ومسبق الصب متخندق على ذاته ويعتقد أنه محور العالم، وبليد بالسياسة فلا يتذكر من القومية إلا عبدالناصر، ولا يتذكر من اليمن إلا حرب الوديعة أو الحوثيين، لقد قالها كبيرنا خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز أهلنا باليمن: «أصل العرب» ومن يفقد أصله يفقد مستقبله، إنك دائماً كلما اتجهت جنوباً فلن تجد إلا النخوة؛ لأنك تقترب دائماً من النبع التاريخي الصافي غير الملوث لخيرة أمة قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ سورة آل عمران آية ١١٠؛ لذا أمر النبي ﷺ أن يخرج أهل اليمن لفتح فارس، وهكذا كان.

(٤)

خصصت المملكة العربية السعودية الوفية مبلغ ثلاثة مليارات ريال سعودي لتنمية اليمن؛ على أن تكون المساعدة مباشرة لأهلنا؛ كي يلمسها المستفيد النهائي «المواطن» وتعبر عن صلة رحم صادقة، فالمال لن يكون معبراً دون يد حانية تقول له: إني مهتمة بك وعليه يقترح: إنشاء «المفوضية السعودية لتنمية اليمن السعيد» على غرار المؤسسات الدولية التابعة للأمم المتحدة،

يعمل فيها قادة سعوديون وآخرون سعوديون ذوو أصول يمنية؛ لتنفيذ وتنسيق البرامج التالية:

- كفالة خمسة آلاف يتيم.
- إنشاء البنك السعودي اليمني للإسكان لتمويل بناء عشرة آلاف وحدة سكنية.
- ابتعـاث خمسة آلاف طالب يمنـي في الجامعات السعودية والدولية على مدى عشر سنوات في تخصصات علمية.
- قبـول ألف حالة مرضية مستعصية للعلاج في المستشفيات السعودية سنوياً.
- بناء خمسة مراكز إسلامية باسم الإمام الشوكاني -رحمه الله- وفيها معهد لعلوم الحديث يقبل خريجوه في الجامعة الإسلامية وأم القرى.
- بنـاء خمس مدارس نموذجية متقدمة بمناهـج عالمية في المدن الرئيسة.
- إلحاق ٥٠ قائـدا يمنيا سنويا ببرنامـج التنمية الحكومية «دبلوم الإدارة العامة» في معهد الإدارة العامة.
- إنشاء خمسة معاهد مهنية في وظائف يحتاج إليها القطاع الخاص السعودي.
- عقد الأسبوع الثقافي السعودي سنويا على أن تكون كل سنة في محافظة يمنية مختلفة.

- عقد ١٠٠ برنامج تدريبي للصحافة والإعلام اليمني خلال عشر سنوات.
- حفر ١٠٠ بئر مياه مع شبكتها في القرى النائية.
- إنشاء فرع لجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن في عدن.
- إنشاء شركة مساهمة سعودية يمنية برأس مال مليار ريال سعودي، تكون شراكة بين صندوق الاستثمارات العامة ومستثمرين سعوديين ويمنيين ومتخصصة في زراعة القهوة، بدلا عن القات وإطلاق علامة تجارية دولية وشبكة للمقاهي الحديثة.
- استضافة ٥٠٠ حاج ومعتمر سنويا.
- تأسيس دار نشر لطباعة الإنتاجين العلمي والأدبي لليمنيين باسم «دار المعارف السعودية اليمنية».
- تأهيل وتدريب سلاح الحدود والبحرية اليمني.
- إلحاق كبار الضباط اليمنيين بجامعة نايف للعلوم الأمنية.
- رعاية ١٠٠ رياضي يمني في الألعاب العربية.
- إنشاء صالة كبرى للرسم والتصوير في صنعاء بالتعاون مع الجمعيات السعودية ذات العلاقة.
- تشجيع ابتعاث ٣٠ أستاذاً سعودياً جامعياً سنوياً كأستاذ زائر في الجامعات اليمنية.
- إنشاء بنك للبذور والتقاوي الزراعية.

- إطلاق برنامج القروض الصغيرة لتنمية الثروة الحيوانية.

لقد رأينا كيف الالتحام الأخوي في بطولة الخليج العربي المنعقدة في اليمن حالياً، وكيف ابتهج أهلنا هناك بها.. إنهم مشتاقون للتفاعل والتعامل بلطف وندّيّة؛ فهم جبابرة بقلوب حانية.. كما نحن.. هم.. هم..

إن الإنتاج والمبادرة هما ممارسة الأقوياء الواثقين بالله.. ثم بإرادة الرجال ذوي الذاكرة، قال سمو النائب الثاني الأمير نايف بن عبدالعزيز: «ما يصيبنا يصيب اليمن، وما يصيب اليمن يصيبنا».

ليست القاعدة من حاول اغتيال الأمير محمد بن نايف

(١)

تبنى تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية المسؤولية عن الاعتداء الذي استهدف مساعد وزير الداخلية السعودي للشؤون الأمنية الأمير محمد بن نايف بن عبدالعزيز، منتصف ليل الخميس ٠٦ / ٠٩ / ١٤٣٠هـ، ونجا الأمير محمد من الاعتداء، الذي نفذه أحد المطلوبين أمنياً، الذي حضر إلى منزل الأمير في جدة أثناء استقباله المهنئين بشهر رمضان، طالباً التوبة قبل أن يفجر نفسه، ما تسبب في إصابة الأمير بجروح طفيفة أدخل على أثرها المستشفى، وكان خادم الحرمين الشريفين أول من اطمأن على صحته في المستشفى قبل خروجه منه.

(٢)

تذهب أغلبية التحليلات السياسية على أن القاعدة وفرعها في شبه الجزيرة العربية هي التي قامت بمحاولة الاغتيال الفاشلة وذلك لعدة اعتبارات منها: اعتراف التنظيم نفسه والاعتراف

سيد الأدلة، كما أن التكتيك المستخدم يحمل طابعها، إضافة إلى أن أداة الجريمة هو أحد المنتمين إليها وذلك باتصاله شخصياً بالأمير وهو أحد المطلوبين المعروفين، إن كل تلك الاعتبارات مقنعة إذا قرأتها بمعزل عن معرفة التطوّر التنظيمي لجماعات العنف المسلح، فستصل إلى النتيجة ذاتها، أما إذا علمت في أي مرحلة تنظيمية تمر بها تلك الجماعة والقاعدة منها، سيأخذك التحليل إلى مدى أبعد.

(٣)

إن جماعات العنف المسلح تمر بأطوار تنظيمية يختلف تسارعها من جماعة إلى أخرى بحسب ظرف القيادة والأحداث والبيئة الراعية فكرياً واقتصادياً والتحدي وعوامل أخرى، والأطوار هي كما يلي:

١. **طور «مرحلة» الحالة:**

يقصد بها تلك المرحلة التي يواجه فيها مجتمع ما تغييرا شبه عام نظراً لتحد ديني أو اقتصادي أو سياسي أو عسكري، يروج منها وفيها حالة من طرح الأسئلة والتردد أو البلبلة أو الاحتجاج أو فقدان الرؤية لفترة زمنية محددة.

٢. طور العصبية:

تظهر تيارات متفرقة، كل تيار يتمحور حول مجموعة من الشخصيات القيادية وشبه القيادية، تتقاطع مصالحهم ويلتقون حول طموح سياسي وشخصي موحد، لمواجهة تلك التحديات، لاعتقادهم إنهم يملكون الأجوبة والحلول الوحيدة والقطعية، التي تصل إلى درجة التقديس، قائما بدور المنقذ، محمّلاً نفسه وأتباعه مسؤولية كبرى عن مستقبل المجتمع.

٣. طور التنظيم:

تقوم العصبة في هذه المرحلة بالتشاور المكثف مع البيئة الحاضنة والراعية فكرياً واقتصادياً لمنحها البركة للبدء في خلق التنظيم الذي سيتشكل وفق مصطلحات وغايات كبرى فضفاضة، مع تشاور داخلي وتبادل الرأي داخل العصبة، ولا سيما أولئك الذين تجمعهم القربى أو المناطقية أو التثقيف والتعليم المشترك أو غيرها من الأسباب، كما يلعب من لديه خبرات تنظيمية سابقة في تشكيل خريطة الطريق. وهنا نجد إن بداية التنظيم غالباً ما تسمو عليها القيم والمبادئ الفكرية، مع حذر شديد، وبداية قلقة، لحداثة الأفراد المنتمين إليه.

٤. طور عسكرة التنظيم:

إن التنظيم في هيئته الجديدة المشكلة من ثلاث شرائح أولاها «الصقور» الذين يؤمنون بالعنف المسلح والتغيير بالقوة والتخريب والتخويف واستعجال الحسم، والثانية شريحة «الحمائم» الذين ينحون إلى الجانب القيمي والمبادئ، مع استخدام العنف بشكل محدود، والشريحة الثالثة «النفعيون» الذين يقدمون مصالحهم على مصالح التنظيم. وفي هذا الطور تبدأ شريحة الصقور في البروز مع تجنيد كوادر ذات خبرات عسكرية، وخلق تنظيم خاص داخل التنظيم، يقوم بمهام استخباراتية حتى على الجناح الآخر من «حمائم» و«نفعيين».

٥. طور الإنجاز:

يقوم التنظيم العسكري بالتشاور مع الهيئة القيادية باختيار هدف ذي مغزى عاطفي كبير، يؤثر ويخاطب غرائز المتأثرين بطور «الحالة» التي ذكرتها في الطور الأول. إن التنظيم في هذا الطور غير معروف، يفاجئ الجميع بالمستوى الاستراتيجي والتقني والعملياتي، ويجذب الإعجاب ويؤثر في الناشئة بين ١٨ و٢٤ سنة، وتزداد موارده المالية واحتفاء البيئة الحاضنة والراعية، مشبعاً التشفي وملبياً غرائز الكراهية والحقد، وكلها باسم قيم أو قضية أو فكرة عادلة.

٦. طور الانتفاش «التضخم»:

يتوسع التنظيم في انتشاره، والتفكير جدياً في إدارة موارده الاقتصادية عبر مشاريع استثمارية بعيدة جغرافياً عن ساحة الحدث، كما تقوم الدول الأخرى بالتفاهم معه عبر وسطاء فيما يسمى التخادم السياسي، ويبدأ في الحصول على حريّة التنقل وتقديم الدعم اللوجستي، دون شروط كبرى، وهنا يقع النزاع داخل التنظيم نفسه حول شرعية التخادم، يتم خلالها تصفية جزء من الجماعة ولا سيما الأصوات المعارضة، لأن الصقور بدءوا يخضعون للتنظيم العسكري وللنفعيين، وبدأت تضمحل القضية العادلة المزعومة وبدأت مراكز النفوذ تكبر داخل التنظيم والتفكير جدياً في اقتسام الكعكة.

٧. طور تلقي الضربات:

يبدأ التنظيم في الاهتزاز والتعرض لضربات أمنية قوية، ما يؤدي إلى حالة انشقاق داخلية، تختفي في هذا الطور شريحة المنتفعين ويهربون بالغنائم من كعكة الغلو والتطرف، كما أن التنظيم العسكري يبدأ في السيطرة محجماً دور القيادة «الصقور» بدعوى الحفاظ على رمزيتها والحفاظ على القائد المقاوم والبطل، والعقل المفكر في التنظيم يتحول بعد ذلك لأيدي العسكريين (التنظيم الخاص) الذي يقوم بخلق هالة من الرعب والفزع والضرب في كل مكان واستهداف أهداف لينة باحثاً عن حالة

الهالة، في حين إنه في الواقع يبدأ في فقدان كبير للبيئة الحاضنة والراعية خوفاً من الملاحقة الأمنية، أو لغياب رموز شريحة الحمائم والمنتفعين وجزء من الصقور. كما تكثر الأخطاء الأمنية ويفقد التنظيم التوجيه «الرؤية» ويكثر في وسطه الاعتقالات وتفكيك تنظيمه، فيبدأ بالشعور بالعزلة مضطراً إلى الدفاع مندفعاً تجاه البحث عن مصادر للتمويل مستخدماً السرقة أو تبرعات مؤسسات العمل الخيري، في حين أن استثماراته الدولية بدأت تصبح نهباً للأجنحة المتصارعة والخيانة.

٨. طور الاضمحلال:

في هذا الطور يضعف الاتصال ويتتابع الفشل بعد آخر، تنظيماً وعسكرياً واجتماعياً واقتصادياً فاقداً التعاطف لحد كبير وللعقل العسكري والقيادي والفكري والتمويل المالي مضطراً قبل إعلان نهايته إلى أن يفوض كل شيء للخلايا الصغيرة في إنشاء تنظيمات صغرى باسم مثلاً «تنظيم القاعدة في الجزيرة العربية» لأن التنظيم الأممي لا يملك شيئاً، فضلاً عن أن القيادات المحلية الصغيرة لديها تطلعات وطموح سياسي، ولا يملك التنظيم القدرة على الاتصال أو التأثير، وهنا يتحول التنظيم إلى عصابة تفتقد قضية عادلة مزعومة، وبيئة حاضنة وتمويلاً وقيادة فكرية إدارية، وأخرى عسكرية إستراتيجية.

٩. طور الاختراق الأمني «قتلة بالإيجار»:

ستسعى أجهزة استخبارات وأحزاب وتنظيمات إقليمية أو دولية التمركز داخل التنظيم، تقبل القيادة الجديدة بموجبها التحالف على مضض، وينتهي هنا دور الوسطاء ويتحول مفهوم التخادم السياسي إلى تخادم عسكري مدفوع، معلناً دخول التنظيم إلى مرحلة الجريمة الجنائية وبندقية للإيجار تتلاعب بها تلك الأجهزة الاستخباراتية، ويكون التنظيم بين نارين: الملاحقة الأمنية والاقتصاص أو الخيانة فيقبل جزء كبير بالخيانة، وسيفتي له أحدهم بأن التحالف مع الشيطان ضرورة تمليها المصلحة ونحن في حرب ولها أحكام لا يفهمها علماء السلطة.

١٠. طور التصفية:

تقوم الأجهزة الأمنية الخارجية المخترِقة بتصفية التنظيم لغرض إخفاء معلومات، إما بقتلهم وإما تهريبهم إلى مناطق أخرى ساخنة، بعدما أصبح التنظيم عبئاً سياسياً، وورقة محروقة لا يمكن توظيفها، فضلاً عن اختراقات لأجهزة أمنية أخرى تتصارع معها داخل التنظيم ذاته مع قيادة جديدة لا يمكن الاعتماد عليها.

(٤)

أزعم أن «القاعدة» عموماً وفي الجزيرة العربية خصوصاً، يمر بالطور التاسع، حيث يكون خلالها مخترقاً أمنياً، تحول أتباعه إلى «مجرمين وبندقية للإيجار» دون أن تعلم بالضرورة الخلايا الميدانية المكونة من أفراده البسطاء الذين قد يكونون مؤمنين أشد الإيمان بالمبادئ الأولى عند تشكيله، بينما القيادة الوسطى حائرة وضائعة ومحبطة ومترددة ويائسة لا تستطيع أن تخبر قواعدها بالفشل الذريع للتنظيم، وأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهم في انتظار معجزة كبرى، بينما الأجهزة الأمنية الاستخباراتية تتلاعب بهم وبأحلامهم بالنهوض وهم يساقون إلى مقصلة التصفية دون أن يعلموا، وذلك لتقديمهم كضحايا وقرابين لتحسين علاقاتهم الدولية أو لإخفاء تورطهم كما ذكرت ذلك سابقاً.

إن الذي حاول اغتيال الأمير محمد بن نايف هو: بندقية مستأجرة، وعلى الجهات المختصة أن تبحث عن القاتل الحقيقي الذي خطط وموّل وسهل ونقل الرسائل وتلاعب بهؤلاء إلى حين، وعلينا في هذه المرحلة أن نكون يقظين، فالصراع تحول إلى مواجهة مع قوى أكبر بكثير من القاعدة.

(٥)

إذاً ما الواجب علينا تجاه ذلك؟

- تجديـد دعوة خادم الحرمـين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيـز لتسليـم المجرمين أنفسهـم، لتلقف بعض من أولئـك المتورطين الذي قد يصحو ضميرهم في أي لحظة، وما ذلك على الله ببعيد.
- إن النجاحات التي قام الأمير محمد وفريق عمله من نخبة المفكريـن والضبـاط والمستشارين، هـي قصة نجاح شهد لهـا العالم، ونحتاج إلى تدعيـم النجاح بما يقتضي تحويل الجهـد الرائـع إلى عمل مؤسسـي، لا يعتمد علـى الأفراد الأفـذاذ فقط من أمثال الأمير، فهـم معذورون في الفترة الماضيـة باعتمادهـم على المبادرة الفرديـة لأن الوطن في أزمة، وقـد قيض الله لنا رجالا وقفـوا بالمرصاد شامخين كآبائهم، ولكن الفرصـة مواتية لتحويل تلك الخبرات إلى قواعـد معلومات ومركز أبحـاث مستقل وتدريـب وتأهيل الضبـاط والمتخصصـين مـن حملـة الدرجـات العلميـة العاليـة على أيـد أولئك النخبـة من الممارسـين لتخفيف مخاطـر فقدان القادة الذي يحملـون بأيديهم كل النجاح «لا قدر الله».

- توحيـد الجبهة الداخليـة واليقظـة لأي اخـتراق أمني أو فكـري أو سياسـي والالتفاف حـول ثوابتنـا الوطنية وهي الدعـوة الإصلاحيـة للإمام محمد بـن عبدالوهاب وراية الحكم وتعزيـز البيعة لولاة الأمر وتدعيـم الشرعية، قال اللّه تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وأولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ سورة آل عمران.
- ألا يكون هنـاك سقف زمني كما هو تفكير خادم الحرمين الشريفـين الملك عبداللّه بـن عبدالعزيز، حين أعلنها منذ اليـوم الأول للتطرف والغلو والتشـدد «سنقاتل ١٠٠ سنة» والثقة باللّه ثـم بالنفس واجبة وتمثلـت في شخص الملك، فانظـر لـه حينمـا زار الأمـير محمـد في المستشفـى بعد الحادثـة... مـا تقدم من خير هـو فداء للتوحيـد، توحيد الوطـن ووطن التوحيد، الأزمات تظهـر معادن الرجال... فلقـاء الوالد بابنـه والزعيـم بضباطه مـلأ النفس زهواً وإعجابـاً بالموقف، وقـد نسوا الناس الحادثـة التي اجتمع الاثنان بسببها، يقول تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ سورة فصلت.
- إن ظاهـرة الغلـو والتطـرف ظاهرة ملازمـة للمجتمعات بشـكل أو آخر ولذا علينا الذهـاب للتخصص، فإن تراكم

الخبرة ستؤدي إلى تحليل عميق، وأبرز قرار استراتيجي يمكن اتخاذه هو: فصل الأمن عن الإدارة المدنية، أي إنشاء وزارة باسم وزارة الحكم المحلي تتولى إدارة المناطق والمحافظات التابعة لها، ما سيمكّن وزارة الداخلية للتركيز على قضايا الأمن الذي أصبح محورياً ومعقداً، ولا سيما في المستقبل حيث سيزداد شمولية، كما أن القرار سيؤثر إيجابياً نحو تفويض صلاحيات أمراء المناطق ويفك اختناق البيروقراطية الإدارية، وسيفعّل دور مجالسها كي تأخذ زمام المبادرة مع محيطها المناطقي.

- إنشاء مجلس أعلى للأمن الفكري يتبعه مركز أبحاث يشارك به نخبة السعوديين والخبراء وغير السعوديين أيضاً، في تخصصات الدين والتربية وعلوم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد والسياسة. يسهم ذلك المجلس في وضع سياسات الدولة تجاه تحقيق الاستقرار الفكري، وبالتالي القضاء على البيئة الحاضنة التي سميتها طور «الحالة» سابقاً.

- إن الدعوة إلى أبنائنا السعوديين الذين بغوا علينا.. كفى تخريباً وتهديماً وترويعاً للآمنين، وكل ما تفعلونه هو تنفيس لعدو خلقه لكم آخرون لا تعلمونهم الله يعلمهم، إنهم بأقبية أجهزة أمنية قد درست حالتكم النفسية

والعاطفيـة والآن.. الآن بالتحديـد أنتـم في الطور التاسع وتقاتلون الشرعية التـي لا يمكنكم الوقوف في وجهها فقد حاولت قوى عظمـى إقليمية ودولية منذ غزو الدرعية عام ١٢٣٣هـ وسقطنا وقمنا، ذهبـوا وبقينا، وهكذا كان، إنكم تقاتلون الشرعيات:

الشرعية الدينية:

إن أئمة آل سعود يؤمنون بالدعوة السلفية الإصلاحية للإمام محمد بن عبدالوهاب خادمين للمقدسات الإسلامية «مكة المكرمة والمدينة المنورة» ويحظون ببيعة العلماء من هيئة كبار العلماء وسماحة المفتي واللجنة الدائمة للإفتاء وقضاة التمييز والقضاة ودكاترة وأساتذة الشريعة والمجامع العلمية وطلاب العلم والدعاة، ألا يسعكم ما وسع هؤلاء، ناشرين للدعوة والقرآن وذابين عن السنة وهم حماتها في العالم، والحق ما شهدت به الأعداء، ولك أن تتابع وسائل الإعلام والاتهامات التي توجه لهذه الدولة وأبرزها الدفاع عن السنة وتمسكها بالإسلام عقيدة وشريعة.

الشرعية التاريخية:

إن البيت السعودي في الجزيرة العربية له في الحكم أكثر من ٥٨٠ عاماً منذ أن عاد جدهم «مانع» إلى الدرعية عام٨٥٠ هـ، يتوارثون الحكمة السياسية وفن الحكم، عارفين للتاريخ والحوادث والسير، وقد جرب الناس حكم غيرهم لفترات قصيرة، ولم يتخلوا عن الوقوف معهم لأن الناس تحترم التاريخ والتجربة التي قد لا تدركها أنت، ولكن يمكنك أن تسأل والدك أو عمك أو جدك، وكل أولئك ليسوا بأقل طموحاً وغيرةً منك على الإسلام والحياة الكريمة، وإياك أن تتهم كل الناس بأنهم سذج وأنت الذكي الألمعي.

شرعية الأمن:

إن الأمن والحكم أصبحا متلازمين منذ ٣٠٠ عام، والقبول الاجتماعي الكبير أحد أسبابه الجوهرية، شعور الناس بالأمن، لأن الجزيرة العربية عبر التاريخ عانت من القتل والسرقة والغزو والخطف والتعدي، والأمن مهم للتنمية، فلا تنمية بلا استقرار ولا استقرار بلا أمن؛ لذا أرسى الحكم السعودي سياسات أبرزها:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ سورة الجن، والطريقة هي الشريعة، حافظ عليها القادة وهي المرجع والفصل، فَعَلِم الخيّر أنه محفوظ، وعلم من فيه شر أن السيف مسنون.

يحظى الأمن بأولوية قصوى في حس الكبار وهمهم، فإذا حدث خطف في الرياض أو الدمام أو أبها أو عرعر، لم ينم المسؤول تلك الليلة ومن هو قريب منهم يعلم أن المرأة والطفل والولد هو شرف الجميع.. إنها الحميّة والغيرة، فكل شرف هو شرفهم، والضباط السعوديون يتحسسون تلك الغيرة والمرجلة وينتفضون للنخوة، وضباطنا مجربون.

إن التدريب والتأهيل والتقنيات المستحدثة أخيرا، والوعي بالمشكلات والتنبه لها مبكراً والمبادرة باستغلال الأزمة من أجل التطوير «اليقظة»، والاستماع للأصوات العقلانية والمخلصة هي سمة قادة الأمن في المملكة فهم قادرون على التصحيح والاعتراف بنقاط الضعف مع مرور كل أزمة.. ودائماً المشكلات والأزمات عندنا يعقبها فرص للعمل والتغيير، ولذلك دائماً ما ترى أن بعد كل أزمة تغيير كبير يدرس بهدوء. نعم لدينا مشكلات محدودة لكن المنصف يعلم أننا نصنف من الدول الأكثر أمناً بالعالم،

ومن يقول غير ذلك فعليه أن يخرج ليلاً في أكبر عواصم الدنيا، في أمريكا الشمالية نيويورك، أو إفريقيا جوهانسبرج، أو أوروبا جنيف حينما تنصح بعدم الخروج ليلاً.

شرعية الإنماء:

إن الإنماء يعزز العقد الاجتماعي السعودي ويؤمن القادة به، وهكذا كانت خطط التنمية السعودية بالتعليم والصحة والبُنى التحتية من مطارات وموانئ وطرق، وتنويع مصادر الدخل والتقليل من الاعتماد على النفط، وتحقيق نمو اقتصادي مطرد، والاستثمار في التنمية البشرية، ثم أصبحت الحاجة لتجديد تلك البنية؛ فأعلن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز مبادرته التنموية بإنفاق ٤٠٠ مليار دولار، ستظهر نتائجها في غضون السنوات الخمس المقبلة. لقد انتقل المجتمع السعودي بالكلية إلى مجتمع نام متحضر متطلع للمستقبل شغوف بالتغيير نحو الأفضل وهو أسن شعوب العالم فـ (٦٠ ٪) منه أقل من ٢٠ سنة، والعمران في كل مكان والمبادرة الذاتية والبحث عن حلول وتحسين الكفاءة والتدريب والحصول على الشهادات العلمية طريقاً يؤمن به رب كل بيت سعودي.. إن العجلة دارت وأصبحت كرة ثلج تتدحرج وتكبر.. وأصبحت التنمية، قضية

وهذه قصة النجاح الكبرى للقائد أن يجعل أتباعه مشاركين في التنمية ولن ينتظروا الحلول بل يسعون إلى خلقها وتنفيذها، وهذا هو عنوان التنمية السعودية الثانية الكبرى.

(٦)

حدثت محاولة اغتيال الأمير محمد بن نايف.. ورب ضارة نافعة فقد تعرف الوطن على جهود المخلصين أولئك النبلاء الذين يعشقون الوطن وماضيه أصحاب المشروع المنتمين للدعوة والراية... لقد اكتشفنا مشروع قائد يحاكي نايف بن عبدالعزيز نفسه... ومن شابه أباه فما ظلم.



ثالثاً: الأعـــــوان

أين النبلاء

يذهب البعض مخطئاً أن النبلاء طبقة من المحاربين ظهروا في العصر الوسيط بأوروبا الملكية، وكان يجمع هؤلاء الفضيلة والشجاعة وشدة الانتماء والثروة «الإقطاع»؛ بما أغدق عليهم نظير إنجازاتهم العسكرية الخارجية والحفاظ على الاستقرار الداخلي ضد أي مؤامرة خاصة أو ثورة عامة.

الصحيح أن النبالة مفهوم أخلاقي قدم الإنسان ذاته ينتظم فيه: الصدق، والاحترام، ففي عهد أور - نانشي ٢٥٠٠ ق. م. ملك لقش (دولة المدينة الرافيدنية الجنوبية بالعراق) كانت له تجارة مزدهرة مع شرق الجزيرة العربية وأظهرت آثار الألواح المنحوتة أنه كان يمتلك سفناً تستورد الخشب من دلمون ومن البلدان الأجنبية.

ومن تجار دلمون «البحرين» رجل يدعى «إيا - ناسر» الذي كان يتخذ من «أور» بالعراق قاعدة له، وكان يتاجر بقوالب النحاس من «مجن» (عُمان حالياً) وقد أظهرت الرسائل التي وجدت سليمة في خرائب بيته، منها رسالة «ناني» الذي شجب سلوك «إيا - ناسر» بغضب قائلاً له: «والآن عندما أتيت قلت: سأعطي

«جيميل – سين» قوالب نحاس جيدة، هذا ما قلته لي عندما أتيت (من دلمون إلى أور) لكنك لم تفعل ذلك. لقد قدمت لمبعوثي قوالب سيئة، وأنت تقول، إذا كنت ستأخذها فخذها وإذا كنت لن تأخذها فاغرب. من أنا حتى تعاملني بهذه الطريقة، تعاملني بمثل هذا الاحتقار. وبين نبيلين مثلنا! لقد كتبت إليك لكي تستلم الدراهم، لكنك تجاهلت ذلك، فمن من بين تجار دلمون تصرف ضدي بهذه الطريقة».

إن رسالة «ناني» قبل «٤٠٠٠» سنة توضح لك أن النبالة هي الصدق والاحترام في التعامل مع الآخرين متبعاً للأعراف المحمودة.

أما في الشرق فيطلق على النبيل «بالساموراي»، أو بلغة اليابان «البو – شي – دو» وتعني طرائق الفارس المحارب، أي الطرائق التي يتعين على النبلاء المحاربين الالتزام بها في حياتهم اليومية، وكذلك في غمار اضطلاعهم بواجبات مهنتهم، وباختصار فهي «وصايا النبالة»: الاستقامة أو العدل، الشجاعة وروح الجسارة والتحمل، الرحمة والتعاطف، اللطف والتهذيب، الصدق والإخلاص، الشرف، واجب الولاء».

يقول «نيتوبي» في كتابه البوشيدو روح اليابان: «ارتفع شأن الساموراي ليصبحوا المثل الأعلى الجميل للأمة اليابانية

بأسرها، وتتردد على ألسنة العامة أغنية تقول: «الساموراي سيد الرجال، كما زهرة الكرز الملكة المتوجة على الزهور» وإذا كانت الممارسات التجارية قد حظرت على الطبقة العسكرية، بالتالي فإنها هي نفسها لم تكن مصدر عون للتجارة إلا أنه لم تكن هناك قناة للنشاط البشري ولا ميدان للفكر لم يتلق بدرجة أو بأخرى قوة دفع من «البوشيدو»، فقد كان فكر اليابان وأخلاقها بصورة مباشرة أو غير مباشرة من إبداع الفروسية. ويقول «مالوك» في كتابه «الاستقراطية والتطور» بأن: «التطور الاجتماعي الذي يختلف عن التطور البيلوجي يمكن تعريفه بأنه: النتيجة غير المقصودة المترتبة على نوايا العظماء» فضلاً عن ذلك فإن التقدم التاريخي يحدث عادة نتيجة صراع: «لا بين أعضاء الجماعة بصفة عامة من أجل العيش، وإنما صراع بين أعضاء شريحة محدودة من الجماعة على القيادة والتوجيه والتشغيل بالنسبة للأغلبية بأفضل وسيلة».

ومن نبلاء العرب قبل الإسلام، الكريم «حاتم الطائي»، الذي أُسرت ابنته في إحدى الغزوات فأؤتي بها للنبي ﷺ فقال لهم وهو سيد نبلاء الأرض: فكوا أسرها لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، أخرجه أحمد وإسناده حسن (لما جيء بأسرى قبيلة طي إلى رسول الله ﷺ، تقدمت إليه بنت جميلة، ووقفت

أمامه، وأخذت تتكلم، فتعجب الناس من فصاحتها وبلاغتها، ومما قالته: يا محمد أعتقني من الأسر، أنا ابنة شريف قومي، كان أبي ملجأ الحيارى، يفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العريان، ويرعى حق الجار، ويكرم الضيف، ولا يأتيه طالب حاجة إلا ورجع مسروراً، أنا ابنة حاتم الطائي، فقال لها رسول الله ﷺ: يا جارية إن ما قلتيه هي صفة المؤمن، ولو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه، ثم قال ﷺ: فكوا أسرها، لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. فطلبت من الرسول ﷺ أن تدعو له، فاستمع ﷺ إلى دعائها، قائلةً: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم إلا جعلك سبباً في ردها عليه، ثم إن النبي ﷺ أرسلها مع بعض الثقات، إلى عشيرتها).. انظر لهذا الإسلام المتسامح الأبي.. أن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.. فالكريم كافر، ومن استفاد من كرمه كفار إلا أن النبيل نبيك فقد بعث ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق.

إن دين محمد ﷺ دين ليس باستئصالي منغلق، إنه يتشاطر مع الإنسانية بقيم يقدرها ويعترف ويكافئ فاعلها فلا يخاف التصنيف أو التخوين أو التديين (من الدونية) بل يصدع بالوسطية «العدل»، وهو الذي نطق بالوحي «القرآن» القائل فيه تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (٨)﴾ المائدة.

الشاهد... النبيل عند العرب مفهوم أخلاقي يرتكز على العطاء، ومنهم الكريم وصاحب الفزعة، وأكبر الفزاعين العرب قبل النبوة هو ذاته ﷺ حينما جاء إلى خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) خائفاً من الوحي حينما قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ العلق، فقالت خديجة يا محمد إن الله لن يخزيك فعددت سمات النبالة فيه فقالت: (كَلاَّ وَاللَّه مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدهر). أخرجه البخاري.

أما النبيل في الإسلام فهو صاحب مكارم الأخلاق أي الرجل أو المرأة الذي أو التي سلمت من النفاق العملي فالنبي ﷺ يحدد مواصفات غير النبيل فيقول: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» أخرجه البخاري ومسلم.

فالنبيل صادق أمين حليم محترم، وأطلب منك عزيزي القارئ.. أن تلتفت يميناً وشمالاً حولك وتستعرض المحيطين بك فرداً فرداً ثم تقول لي: ما النتيجة؟ النتيجة إن النبالة عزيزة فلن يلقاّها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.. هذه سنة الله في

خلقه، فسواد الناس يتأرجحون بين صفة وأخرى فما أكثر الناس ولو رغبنا بنبلاء... لكنني على يقين أن أكبر مخزون بشري للنبالة في العالم هو في الجزيرة العربية لا محالة، وإليك قصة واحد منهم وهو: «معشي الذيب»: يحكى أن ذئباً هرماً عوى بألم من شدة الجوع بليلة شاتية بأحد بوادي الجزيرة، فما كان من صاحب الغنم إلا أن ذبح شاة وقدمها للذئب كي يوقف ألمه، فما برح الذئب إلا أن شبع وغادر المكان.. بالله عليكم أيفعلها غير إنسان الجزيرة، نعم قد يفعلها إنسان آخر لكنه ليس على هذا الكوكب.

ومن النبلاء بالمملكة العربية السعودية الضابط الساهر؛ يقظاً على الأمن ونحن نيام، أو يتعقب جريمة كبرى فيوقع فاعليها فيريح البلاد والعباد، أو النبيل ذلك الرجل في أروقة الحكم والسياسة يفتش عن الحكمة فينصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، أو هو المسؤول الكبير بإحدى الوزارات أو الهيئات يعمل بجد ونشاط ونظافة نحو التحديث، ولا يرجو إلا الله ثم الوطن، أو هو ذلك العالم والمفكر ومدير المدرسة المشغول والمهموم بمستقبل أجيالنا، أو هي تلك المرأة الساعية على المريض والأرملة والمطلقة والمعوق والمسكين وابن السبيل ثم تعود للمنزل متعبة لمنح التربية والحنان، أو النبيل هو شيخ القبيلة أو الوجيه في قومه فيصلح ذات بينهم فيكسو المعدوم ويعين على

نوائب الدهر ونار مجلسه لا تنطفئ، ثم يتحمل صفاقة الغبي وسفاهة الجاهل وغيبة الحاسد، أو النبيل هو الشاب في مقتبل العمر القادم من أقاصي الوطن يكد ليل نهار ليعول شيخاً وأماً وأخواته البنات، فيحفر في صخرة المعرفة والالتزام المهني كي يفوز برضاهم، أو النبيل ذلك الشيخ الداعية المقاصدي الذي يحمل هم الناس والوطن على رأسه فلا يرجو لهم إلا البر والسؤدد، تحسبه غنياً من التعفف وهو يستدين فيعطي ويعطي حتى لا يقول الناس الدين خذلنا، ثم يحارب من البطّالين بالتصنيف والتخوين الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

أو النبيل ذلك الأديب الأريب، وجهه طلق ولسانه يقطر معرفة، ويزرع الخلق الرفيع والعادات والأعراف الحميدة.

إن هؤلاء النبلاء يتصرفون بمسؤولية كبرى كأنما كل حجر ومدر وبشر من الوطن هو جزء منهم، يحدثونك عن الماضي بإباء وعن المستقبل بأمل، الأكيد أنهم يمشون على الأرض واثقين بالله ثم بالقيادة، يحبون أن يشيع الخير بين الناس، يعضون على أحزانهم وآلامهم، يغضبون ثم يكتئبون ثم يعودون من جديد فيستأنفون المسيرة وقد نسوا الماضي، ولا يعرفون إلا الله ثم الوطن..

إن هؤلاء يستحقون منا الوفاء، فخسارة نبيل هو نقص للوطن وزيادة نبيل زيادة، وما علينا إلا السؤال عنهم فهم يظهرون للناس كالأثرياء، وهناك آخرون أثرياء يظهرون كالفقراء.. إننا تواقون لجائزة الدولة التقديرية لأمثال هؤلاء تمنح في اليوم الوطني كل عام فيعمّم النموذج وتقدّر النبالة؛ فتنبعث فوارة كل عام للسلام على كبير النبلاء..

أما عن مونتسكو صاحب كتاب روح الشرائع، مبتكر نظام فصل السلطات الثلاث (التنفيذية - التشريعية - القضائية).

يقول: «إن عماد النظام الديمقراطي الصوت الانتخابي، وعماد النظام الشمولي القهر وتملك وسائل العنف، أما النظام الملكي فعماده النبلاء».

المستشار الميت

كلما ازدادت قوتك تعرضت لاختبار الاختيار بين البدائل، ثم يصبح البديل المختار قراراً، وبيئة اتخاذ القرار تعاني شحاً أو كثرة المعلومات وتضاربها أو عدم التأكد من نتائجها، ولا سيما إذا كنت من أولي العزم من القادة «الاستراتيجيين»، حين تُمطَر بكم هائل من القضايا في زمن محدد؛ لذا يسعى هؤلاء القادة للاستعانة بخبراء ومستشارين دائمين أو غير متفرغين أو بيوت خبرة «تفكير» وطنية أو دولية، وهذا فعل حسن؛ فالله تعالى يقول: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ سورة الشورى آية ٣٨، والنبي الهادي البشير ﷺ يقول: «ما خاب من استخار وما ندم من استشار» أخرجه الطبراني، والقائد الحكيم ليس بالقائد الأذكى بالضرورة، بل هو القائد القادر على اختيار عقول البشر لغرض اختيار القرار الأفضل له؛ فالناس لا يهمها مَنْ صَنَع القرار، بل مَن يتحمل مخاطرة «مسؤولية» القرار، وإلا لكان المستشارون «الصانع» هم أعظم الزعماء، وهذا محال بالاستقراء التاريخي، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها عقولها»، الشاهد.. هذا فعل حسن، كما ذكرت، ويبقى التحدي الثاني والأكبر هو: كيف تختار المستشار؟

ومتى يكون المستشار صادقاً أو مضللاً؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابة. لا ريب أن القوي ليس كالضعيف، فالضعيف يتمتع بميزة لا يتمتع بها القوي، وهي أن الناس صادقة في سلوكهم معه، فإن ابتسم أحدٌ له فهو راضٍ عنه، وإن تمعرّ وجه فهو غاضب منه، وإن أعطاه فهو يعطيه من القلب، وإن أخذ منه شيئاً فهو يأخذ ما يدعي أنه يستحقه فيستوفي حقه، ثم يأمن غيلته وغدره، بينما القوي لا ينتفع بتلك المزايا؛ عليه فقد فهمنا أهمية التحدي الذي يواجه القائد القوي، وإليك التدابير التي تمكنك من التغلب على تلك التحديات، وهي كما يلي:

- **إيـاك.. ثـم إيـاك أن تستشير الـدنيء «رخيص النفس»** فهـو للخيانة أقرب، فإما يغلّـب مصلحته على مصلحتك، أو يغلّـب مصلحتـك العاجلـة علـى الآجلـة فتكسـب الآن وتخسـر غـداً، أو يغلّـب مصلحتك في الدنيـا على حساب الآخرة مرفودا بالعجلة التي طبع عليها البشر، قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَـلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَـةَ (٢٠) وَتَـذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ سورة القيامة، آيه ٢٠-٢١.
- **المستشار بشر يخضع للتبدل والتحول والتغيّر**، فإذا كان إيمانــه مع ربه كذلك حين يقول المصطفى ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» أخرجه الترمـذي وابن ماجه، فهو معك أيها القائد من باب أولى،

فإن بقاء الحال من المحال؛ ولذا لا تكن أسير الرأي الواحد البتة، فنوّع من الآراء؛ كي تستفز عقول من حولك بعضهم البعض فيصدقوا لك حين يعلمون أن هناك رأياً آخر، فتأمن الوقوع في المحذور حين يتبدل المستشار فتفوز، فبيضك لم يكن في سلة واحدة.

- **شاور عدوك واستطلع رأيه دون أن يعلم**؛ فهو أكثر الناس معرفة بعيوبك، وصادق في عداوته فيرى ويتكلم بما لا يتكلم به المحيطون بك، فعين السخط تبدي المساوئ وعين الرضا تتجاوز عن العيب أو تحجم منه.

- **شاور الآمن والشبعان**، فالخائف يؤثر السلامة فإما يسكت عن قول الحق أو يورّي بالحق من بعيد دون فصاحة، أما غير الشبعان فعينه عليك وعينه الأخرى على المال، وإذا انشغل بتحصيله؛ فقد نور بصيرته وقديح روحه فيضعف الرأي، قال زياد لحاجبه عجلان: أدخل عليّ رجلاً عاقلاً حتى أشاوره في بعض أمري! فقال: لا أعرف من تعني! فقال: إن العاقل لا يخفى في شكله وكلامه وهيئته! قال: فخرج فلقي رجلاً بهياً حسن الوجه، مريد القامة؛ فقال له: أدخل! فدخل! فقال له زياد: إني أريد مشاورتك في أمر! فقال: إني جائع ولا رأي لجائع! فقال: أحضروا له الطعام! فلما قضى حاجته منه، قال له هات! فقال: إني حاقن ولا

رأي لحاقــن! فقال: يا عجلان! أدخلــه المتوضأ، فلما خرج سأله عن أمــره فما قال له شيئاً إلا وأحسن الجواب عنه».
كمــا عليك أن تكرم المستشار فيــزداد وفاؤه، ولا سيما بعد كل رأي حســن أتى بثماره، على أن تبلغه بحصرم رأيه إذا خاب دون تأنيب أو توبيخ فتزداد تجربته ويقدم على الرأي مرة تلو المرة دون التفكير في العقوبة.

- **لا تشـاور القريـب جـدا فغالبـاً يكـون جـزءاً مـن اللعبة،** سواءً علمت أو لم تعلم، كما أن شدة القرب تحجب الرؤية، ولا تشاور البعيــد جداً؛ فغالباً يكون بعيداً عن فهم التاريخ وتعقيد نفسيــات النـاس وتقدير الآثــار والعواقب، ويحتاج إلى الشــرح، وسيكون أســير رأي من يشرح لــه بالمحصلة النهائيــة؛ ولذا عليــك بالمستشار القريــب البعيد فهو ليس جــزءاً من اللعبــة وليس بعيــداً عن اللعبــة، وعندها غالباً يكون رأيه منصفاً وخلاقاً.

- **إذا طلبـت المشـورة فلا تعـطِ رأيك أيها القائـد سلفاً،** لأن بعض المستشارين إما يضعــون أنفسهم مكانك فيتحدثون بلسانــك وعندها لن يأتــوا بشيء جديــد، أو يعلمون يقيناً أنك صاحــب هوى وميل لجغرافيا أو لتاريــخ من البشر أو ذوق خاص أو آراء تتحدث بإعجاب بهــا، وإذا ما خالفك المستشار الرأي فقد الدنيا والآخرة ولذا يجاريك.

- **نوّع في مشارب «ثقافة» مستشاريك وتخصصاتهم العلمية أو مصادر تلقي علومهم، والتنويع يمتد لرأي الشباب والمرأة والوطنيين والأجانب والأقلية والأكثرية،** ما يمكّنك من الحصول على الرأي بأبعاده المختلفة مع إعطائك توقعاً مبكراً عن بيئة التطبيق والتغذية الراجعة لاحقاً.
- **غيّر مستشاريك بعد فترة وأخرى،** ذلك لأن الإلف والعادة تميت الإبداع والابتكار والتفكير، ويتحول المستشار إلى موظف محترف ومطبق ذي مهارة عالية بسبب حجم المشكلات والحلول التي تعرَّف عليها؛ ولذا عليك أن تنقله عندها إلى بيروقراطي «إداري»، قيادي هرمي، أو أن تسمح له بين حين وآخر بأن يبعد عنك، ثم يجدد نفسه بالقراءة والاحتكاك والحوار وحضور البرامج التدريبية أو المؤتمرات والاسترخاء والتأمل والتفكر والتدبر، ثم العودة من جديد.
- **شاور كل مستشار على حدة،** فالشورى الجماعية من خلال اللجان أو ورش العمل أو اللقاء الجماعي الموسع قد يدفع بالبعض؛ بسبب التنافس والغيرة والحسد، التي قليل من الناس يسلم منها، بأن يسقط رأي قرينه؛ خوفاً من علو كعبه حتى لو أضر بالمصلحة العامة، ثم يمكنك جمعهم لاحقاً كي ما تتلاقح العقول بعدما أفرغت ما في جعبتها.

- **إن كـثرة الشـورى لا تقـل سوءا عن قلتهـا**، فالأولى تعبير عـن التردد وضعـف شخصيـة القائد وتشكيـك بقوله ما يـؤدي إلى فتـور الهمم وخبـو المشاعر قال تعـالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ سورة آل عمران آية ١٥٩. ومهما فعلت فلن تسلم من المخاطرة والنبي ﷺ ما كان له ذلك قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ سورة الأعراف، آية ١٨٨.
- **إن الاستشارة عملية تحتاج إلى تخطيط وتنظيم وتنفيذ وإشـراف ورقابـة**، ومنها: أن تخطط لأهـداف الاستشارة بوضـوح «توضيـح المهمـة»، وأن تحدد الزمـان، مع تزويد المستشـار بمعلومات يقرأهـا قبلا، مع اختيـار أفضل من ينفع لهـذه المهمة بالتحديـد، فقد انتهى عصـر المستشار الفيلسوف «السوبر مـان» الذي يفهم في كل شيء ويجيبك عـن كل شيء، كمـا عليك أن تختار مديـراً للنقاش، قادراً على توزيع الوقت وفَهْم نفسيات الخبراء واستخراج أفضل ما لديهم، بطرح الأسئلـة الذكية والإنصات بعمق وتقديم الثنـاء، والربط بـين محاور النقاش للخلوص بالنتائج، مـع سكرتارية كفؤ التنظيم والتوثيـق، وكم من مرة دعيت للنقاش واكتشفت سـوء اختيـار المدير الـذي أهدر وقت الجميـع بعد أن أعطانـا درساً عظيماً عـن ذكائه الخارق وألمعيتـه المشهودة، ثم قام الجميع مغفـوراً لهم، وقد تمت الشورى والحمد لله رب العالمين.

- **أيها القائد لقد بذلت الأسباب العقلية في الحصول على أفضل المستشارين وما لديهم**، وبقي عليك بذل الأسباب الشرعية وهي الاستخارة بقولك: عن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري»، أو قال: «عاجل أمري وأجله، فاقدره لي ويسّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري» أو قال: «عاجل أمري وأجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به» قال «ويسمّي حاجته» أخرجه البخاري.
- **بعد اتخاذك القرار اصبر قليلاً من الزمن إذا كان ذلك بالإمكان**؛ طمعاً في التأكد أن الرأي الذي توصلت إليه لم يكن خاضعاً لضغط مقصود عليك أو تضليل قد لا تدركه إلا بعد أن تهدأ إن كنت غاضباً، «ردة فعل» وإن استطعت أن تجعل التنفيذ تدريجياً أو جزئياً بما يمكنك من اكتشاف عيوب التطبيق فحسنا تفعل.

- **لا تهمـل أي رأي حتـى لو اتخذت رأياً وصنعت منه قراراً**، بـل أبقى على الآراء الأخرى كبدائل «الخطة ب» ففي حالة وقـوع الأسوأ فيمكنـك استخدام تلـك الآراء، حينها تكون جاهزاً أيضاً للتطبيق بعد إجراء تعديل محدود.
- **شـاور القيـادات أو المعنيـين ببيئـة تطبيـق القـرار الـذي حزمـت أمـرك سلفـاً فيـه**، والشـورى الثانيـة هنـا لهـا وظيفتـان: تحفيز من تشـاور كي تكسبـه شخصياً وسوف يقدّر لـك اختيارك لـه، والوظيفة الثانية هـي تهيئة مناخ وبيئـة التطبيق كأنمـا الرأي قد صدر عنهـم وبمشاركتهم فيتحمسون للتنفيذ.

وختاماً.. طال الحديث ولم يسألني أحد عن علاقة العنوان بالموضوع، ومن هو المستشار الميت؟..

المستشار الميت يا سيدي هو: التاريخ وتراجم الرجال والسير الذاتية التي مات أصحابها ومؤرخوها، فكلما حزبك أمر واستطعت أن تعود له بالقراءة والتحليل فإنه سيغنيك عن المستشارين ومقالتي برمتها...

عشر نصائح
كي تصبح قائداً إدارياً خائباً

إليك عزيزي القائد الخائب نصائح لن تندم على تطبيقها، بل ستدعو لي آناء الليل وأطراف النهار، ثم قل لي بالله عليك.. كم شخصاً في الدنيا حريص عليك مثلي؟.. والنصائح الدرية هي:

- في الوظائف القيادية استقطب أو رفّع شخصيات هامشية وضعيفة كي تضمن ألا يشكل أحدهم تهديداً قيادياً لك في المستقبل، ولتلك الشخصيات مزايا من أبرزها أنه إذا أمرتها تطيع دون مناقشة، فهي ليست شريكة القرار، ثم إن الإنسان بطبيعته يبحث عن النفوذ والسلطة والشهرة، ولذا سينشغلون بهذا عن العمل والإنجاز، فيتآمر بعضهم على بعض وتكثر الغيبة والنميمة، والحقير جدا منهم سيزودك بالأخبار أول بأول، وعليه ستضمن ولاء الجميع لك لأنك القوة الوحيدة والمسيطرة، وإن استطعت أن تشجع الصراع بينهم فافعل.
- إذا حققت نجاحاً لافتا - لا قدر الله - فاسرق الأضواء لك وحدك، وأبعد من تسبب فيه، وأن استطعت أن تبعدهم عن محافل التكريم والظهور فافعل، وإذا حققت فشلاً ذريعاً

فابحـث عن كبش فـداء واذبحه دون أن تسمـي عليه، وإن استطعـت ألا تستقبل القبلة فمنـدوب، أو ابحث عن كبش فـداء خارج المنشـأة وعلق عليه الكبش، ومـا أكثر الأعداء الذين يتآمرون عليك أيها القائد اللي ما فيه مثلك.

- ضـع حاجزاً بينك وبين النـاس.. فالناس بطبيعتها تعجب بالغموض، وستتمكـن مـن إلباس الهيبـة علـى نفسـك فتمنعهـم من أن يكتشفـوا ضحالة علمـك وتجربتك، وإن استطعـت أن تحفظ أفـكاراً «آراء» لافتة وغريبة تخدع بها أول من يلتقيك وتصدمه بها فافعل.

- إيـاك إيـاك ثـم إيـاك أن تقـدم المصلحـة العامـة علـى مصلحتك الخاصة فالدنيا غابة يأكل القوي الضعيف، ولا تفكر في المستقبل كثيراً بل في الحاضر المعاش، وهي فرصة فاغتنمها فهي لك أو لأخيك أو للذئب، وبين حين وآخر إذا آلمـك ضميرك فاحفر حفرة صغيرة وادفنه فيها وكان الله غفوراً رحيما. وإذا قال لك أحدهم: الوطن.. فقل: للوطن رب يحميه.

- حجّـم مـن نجاحـات الآخرين قدر مـا تستطيـع لأن تلك المبـادرات ستظهر عجـزك وخيبتك، وبدلاً مـن أن تفكك أسبـاب نجاحهـا وتحـاول تقليدهـا والتفـوق عليهـا مما يستغـرق وقتاً وجهداً كبيرين.. فما عليك إلا أن تقول: تلك إنجازات زائفة، وإذا لم يصدقك من حولك وغُلبت الروم فقل: الظروف مختلفة.

- بعـد برهة من الزمن ستشعـر أنك في حاجة إلى إنجازات سريعـة؛ لأن مجلس الإدارة أو رئيسـك الأعلـى بـدءوا يتساءلـون، وهنا أنصحـك أيها القائد (اللـي ما قبله ولا بعـده).. أن تتجـه للإعلام وركـز على الأرقـام الكبيرة، فالناس تهمها الكمية لا الجودة وتهتم بالظاهر لا الباطن، وبالعناوين لا التفاصيل، وبالمدخلات لا المخرجات.
- احـذر احـذر ثـم احـذر مـن القيـادات الشابـة، ولا تقل هـذا صغـير.. فالصغير يكـبر.. انتبه لأفـكاره الإبداعية والخارجـة عـن المألـوف فضـلاً عـن قدرته علـى تحويل الأفـكار إلى خطط تفصيلية وبرامـج عمل، ولذا عليك أن تقضي على الفتنـة في مهدها.. فالآن لن يدري به أي أحد وغـداً سيدري به كل أحـد. ويمكن لك أن تكون كأخ يوسف عليه السلام الكبير بأن يلتقطه أحد السيارة دون القضاء المبرم عليـه، فخذ خـيره ودعك من شره، وضع لـه مكتباً منزوياً معـزولاً وهذا أهون الشرين. بقي شيء آخر وليس أخيراً.. احذر التدريـب وإذا كنت مضطراً ولا بد، فابعث عصبتك وجماعتك أو شخصية هزيلة تضمن ألا تعود بفائدة.
- لا تبادر مطلقاً، فالمبادرة بها مخاطرة كبيرة جداً وقد تقع أخطاء وستلام عليها، والثناء عليك مشكوك فيه، هذا إذا فكر أحد في الثناء عليك، ولذا حافظ على الوضع الراهن،

ولكن ليس بأن يصبـح مهملاً بل قريب من المهمل، فاليوم مثـل غد مثـل بعد غد، بـل السنة مثـل السنة التـي تليها؛ أي يـوم واحد مضروب في ٣٦٤ يومـاً، واصبر فإن الصبر والزمن كفيلان بأن يقضي على معارضيك.

- كـن تكتيكيـاً، وإيـاك والاستراتيجيـات بأن تحلـل الوضع الماضي والحاضر وتستشرف المستقبل فتعرف التهديدات والفرص، ثـم تؤمـن بـأن البناء يحتـاج إلى جهـود فرق العمل والخطط والأنظمـة واللوائح والموازنات التخطيطية والقياس والتحقق من الجودة وبالتالي مأسسة العمل، كي لا تعتمـد على فرد واحـد.. بل قل: تلـك خرافات لا يمكن تطبيقها في العالم النامـي، فأنت وحدك المهم ومن بعدك الطوفـان، ودع الناس تعـرف قدرك حينما ينهـار العمل، فالبناء إما بك وإلا فلا.
- لا تكـن كريمـاً ومحفـزاً فاعمل بمـا في المثل «جـوع كلبك يتبعـك»؛ فالتحفيـز سيظهـر أنـك مهتـم بالعاملـين أو بالقيـادات الواعـدة، وقـد تعلمت في الحياة يـا حبيبي أن هـؤلاء إذا أعطيتهـم وجهـاً سيخربـون، فالبشـر كالآلـة «السيـارة» صـب فيـه بنزينا بقـدر المشـوار وإلا سيذهب بعيداً، وسواء حفزته أم لم تحفزه فالنتيجة واحدة، إن من ينتصر هو منطق القوة لا منطق التأثير والإلهام.

هذه عشر نصائح وسأعطيك اثنتين على البيعة:

- أكـثر من تعيين أبنــاء منطقتــك، أو أقول لك: عــيّن أبناء مدينتــك.. أو أقــول لــك: أحسن عــيّن أقاربــك.. ومد في قرابتك خير من صاع في سبيل الله كما يقول المثل.. ثم دع عنك الوطن الكبير العظيم، واجعله مزرعة صغيرة خلفية لمنزلك.
- ســرب معلومــات وبطريقة ذكية عن طـرح المناقصات، أو استغـل معلومــات لا يعرف بها إلا عدد محــدود من الناس فبيدك لا بيــد عمر.. وإذا آلمك ضميرك هذه المرة فابحث عن بئر سحيقــة وارم ضميرك فيه ثم أردمه بحجر كثيف حتى تضمن ألا يعود البتة.

لقد لاحظت -عزيزي القائد الخائب- مدى إخلاصي لك، وعندي لك من النصائح الكثيرة، ولكن طول المقام يضعف الكلام، ودعوتي لك أخيراً أن الله يصلحك، وأن ترمي بكل نصائحي بالبحر أو تضرب بها عرض الحائط، لأني تذكرت أنك بالدنيا ستنال عقاب رئيسك أو مجلس إدارتك عاجلاً أم آجلاً كما فعل السلطان العادل في فاجعة جدة، والقائل: واستصحاباً لجسامة خطب هذه الفاجعة وما خلفته من مآس لا نزال نستشعر أحداثها المؤلمة وتداعياتها حتى نقف على الحقيقة

بكامل تفاصيلها لإيقاع الجزاء الشرعي الرادع على كل من ثبت تورطه أو تقصيره في هذا المصاب المفجع لا نخشى في الله لومة لائم، فعقيدتنا ثم وطننا ومواطنونا أثمن وأعز ما نحافظ عليه ونرعاه، جاعلين نصب أعيننا ما يجب علينا من إبراء الذمة أمام الله تعالى بإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، لحق الوطن والمواطن وكل مقيم على أرضنا، وتخفيفاً من لوعة ذوي الضحايا الأبرياء وتعزيزاً لكرامة الشهداء - رحمهم الله - بإرساء معايير الحق والعدالة، وأما عن الآخرة فقد تذكرت قول الله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾ سورة القصص.



رابعاً: التنميـــة

عشرون سلاحاً للقتل

(١)

ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو كان الفقر رجلاً لقتلته.

عرّف مؤتمر القمة العالمي للتنمية الاجتماعية المنعقد في كوبنهاجن سنة ١٩٩٥م «الفقر» بأنه: الافتقار إلى الدخل وموارد الإنتاج الكافية لضمان وسائل العيش بكيفية مستمرة، والجوع أو سوء التغذية وسوء الصحة والوصول المحدود إلى التعليم وغيره من الخدمات الأساسية، أو الافتقار إليها، وازدياد معدل الوفيات الناجمة عن الأمراض والتشرد والسكن غير الملائم، والبنيات غير المألوفة والتمييز الاقتصادي والاجتماعي، كما يتسم بعدم المشاركة في صنع القرار، وفي الحياة المدنية والاجتماعية والثقافية.

(٢)

إن الفقر الذي نواجهه بالسعودية ليس فقراً في الموارد، وإنما فقرٌ بالإدارة ذو ثلاثة أقسام، القسم الأول فقر اختاره المواطن بسبب سوء إدارته لموارده الذاتية، إما بسبب افتقارنا في العموم لتنشئة اقتصادية فنستطيع وضع ميزانية قائمة على إمكاناتنا المتاحة والالتزام بها مع ادخار الفائض، والسبب الثاني تسابقنا نحو الاستهلاك التفاخري، والسرف، والمخيلة، ومحاكاة الميسورين والأغنياء الذي يضغط معنوياً بعض منهم على بقية المجتمع، والسبب الأخير ارتكاب مقامرة كبرى للإثراء السريع بالاستثمار في أسواق عالية المخاطر مثل سوق الأسهم أو المضاربات العقارية غير المرخصة أو توظيف الأموال بشركات النصب والاحتيال وتلبيس الطواقي.

(٣)

القسم الثاني: فقر لم يختاره المواطن، ولكن لم يسع لتغييره، والله استودع الناس قدرات، واستعدادات، ومواهب هائلة، وطلب منهم تحمل مسؤولية الحركة باستثمار تلك الثروات المكنوزة بقوله تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ سورة الرعد - آية ١١. ويقول المصطفى ﷺ «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» أخرجه مسلم.

ويقول السيد: روبين سيفر لينج: «إن عشرة قروش وكيلو من الذهب تكون لهما نفس القيمة إذا تركت لتصدأ في قاع المحيط، إن الاختلاف في القيمة يظهر فقط عندما تستخرج هذه العملات وتستخدمها فيما صنعت من أجله عندها ستصبح قيمتك حقيقية وصالحة ورائجة، عندما تتعلم الوصول إلى ما بداخلك والانتفاع من الأشياء الهائلة الكامنة فيك».

كم منا يبحث لنفسه أو لأولاده عن «القيمة المضافة» أي التميز الذي يستطيع من خلاله التفوق وتحسين دخله عبر الاستثمار في ذاته وأولاده بالتعليم النوعي والقراءة الحرة، والتدريب لاكتساب المهارات الفنية أو الإدارية كالاتصال، والعرض، والتقديم، وتحويل للأفكار لبرامج عمل، وإعداد الموازنات التخطيطية، ومهارات العلاقات العامة، وصناعة الانطباع الإيجابي، بالإضافة إلى تعلم اللغات وتقنيات الحاسب الآلي، فضلاً عن الاشتراك بالمجلات المتخصصة، أعرف أن هذا صعب شيئاً ما على ثقافتنا لكنه الطريق الأكيد - بإذن الله - الذي حقق نجاحاً لكثير من السعوديين والأجانب الذين إذا التفت حولك وجدتهم نجحوا بالإمكانات المتاحة، وهم يعيشون معك ذات الظروف، ولكن عليك القراءة بعلم إدارة الذات «الشخصية» والالتزام، والمثابرة، والصبر، والتضحية بالأهواء، والملذات الشخصية، وأن

تكف أن تبكي على الماضي أو هدر الطاقة في تحميل مشكلاتك لمحيطك، ولقد وجدت العديد من جيلنا السعودي الصاعد آخذ زمام المبادرة وكتب إدارة الذات الأكبر مبيعاً بالسعودية والعالم العربي والشرق الأوسط... إنهم قد هجروا فقرالذات «النفس» إلى غير رجعة وتيسير الحال والنجاح مسألة زمن بإذن الله.

(٤)

القسم الثالث: فقر لم يختاره المواطن فسعى لتغييره، ولم ينجح بسبب الإعاقة، أو كثرة الذرية، ورعاية الوالدين، أو نكبات طبيعية، أو مشكلات أسرية عقيمة كالمخدرات، أو السجن لمعيل الأسرة أو الموت والمرض... فكل تلك الأسباب تجعل من مواجهة الفقر أمراً حتمياً، والسؤال الذي تطرحه كل الدول من أين الموارد المالية؟ وجوابه بالسعودية ليس صعباً فمواردنا كبيرة، والدولة قد رصدت أكثر من ١٦ ملياراً لصندوق الضمان الاجتماعي، فضلاً عن صناديق التنمية، وبنك التسليف والادخار السعودي، والمخصصات الأخرى، إلا أن الإرادة الملكية الكريمة لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز والذي شهد أعداءه قبل أصدقائه بأنه ملك تميز بأمرين كالشمس في رابعة النهار أولهما أنه وفي صادق اللهجة، والثاني عاطفته

الجياشة التي جلبت له محبة الناس بالداخل والخارج دون عناء أجهزة العلاقات العامة.. إن الإرادة الملكية لعلاج الفقر لم تجد طريقها بقوة، ولا أريد أن أحمل المسؤولية جهة محددة بذاتها كوزارة الشؤون الاجتماعية ووزيرها المتألق، فنحن نعلم أن الفقر مشكلة ذات أبعاد يشارك بمستقبلها العديد من الجهات بما في ذلك الغيورون على وحدتنا ومستقبلنا.

(٥)

أقترح عشرين سلاحاً لقتل الفقر أو تطويقه والحد منه، وتلك الاقتراحات تنطلق من أن الفقر ذو ثلاثة أقسام، كما ذكرت بالمقدمة منه فقر اختيار، والثاني فقر بالنفس والذات، والثالث فقر اضطرار لم يسع إليه المواطن، ولا يستطيع تغييره والمقترحات هي:

- تخصيص حصة «كوتا» بالجامعات، والكليات العسكرية، والمعاهد الفنية، والابتعاث الخارجي لمحدودي الدخل.
- إعادة ترتيب أولوية منح القروض والأراضي، وبالذات من صندوق التنمية العقاري بحسب الاحتياج، وليس بحسب ترتيب التقديم.
- إنشاء شركة مقاولات وطنية عملاقة مع الصينيين مثلاً لبناء الوحدات الاقتصادية الصغيرة لمحدودي الدخل.

- إقـرار الحقيبـة المجانية للخدمـات الأساسيـة للكهرباء، والماء، والهاتف، وأية خدمات أخرى، وتحميل تكلفتها عبر زيادة تكلفة الشرائح الأعلى.
- إعطـاء أولوية التوظيـف بالقطاع الحكومـي بالترتيب مع ديوان الخدمة المدنية للأكثر احتياجاً كمعيار إضافي لبقية المعايير الأخرى. أو تخصيص نظام الحصص «الكوتا».
- تخصيصـص نسبة مـن صافي إيـرادات الحسابات الجارية «الودائـع المجانيـة التي لا يتقاضـى عليها المـودع أرباحاً» بالبنوك السعودية وتأسيس إدارات للمسؤولية الاجتماعية لإنفاقها.
- وضـع ضوابـط مشـددة أو مانعـة للإقراضـ الفـردي والتقسيـط، ولا سيما لمتوسطـي الدخول أو أقل عبر الرقم الموحد للعملاء بالمملكة الذي يظهر المركز المالي للمواطن.
- تأسيـس بنـك الطعـام لتسلمه وحفظـه وتعليبـه وتوزيعه للمحتاجـين، ويفتتـح له فـروع بجميـع أنحـاء المملكة مع الاستفادة من التجارب الناجحة إقليمياً ودولياً.
- تأسيس بنـك الملابس لتسلم ومعالجـة وتنظيف الملابس، وإعادة تغليفها وتوزيعها للمحتاجين.
- إعادة هيكلة الزيادات السنوية بنظام الخدمة المدنية بحيث تكـون النسبة الأعلى للشرائح الأدنى ثم تقل تدريجياً، لأن

المائة ريال لمن دخله ألفان ريال لها أهمية أعلى ممن دخله عشرون ألف ريال وفق قانون المنفعة الحدية.

- فرض نظـام الحد الأدنـى للأجور بالقطاعـين الحكومي والخاص مع مراعاة التنافسية بالقطاع الخاص.
- إنشـاء الجمعيـات التعاونية بالأحياء محـدودة الدخل مع تسهيلات ملموسة من الجمارك ووزارة التجارة.
- إنشـاء «٢٠٠» مركـز لإدارة الـذات والحيـاة لإكسـاب السعوديـين مهـارات ومعـارف تساعـد القسـم الثـاني بالتحديد لتحسين مستقبله المهني والتجاري.
- إنشـاء مجلس أعلـى للمؤسسات الخيريـة بالمملكة، وذلك لإعـداد قاعدة بيانات موحـدة واقتسام المناطق والأنشطة لتحقيـق فعاليـة وتركيز أفضـل في علاج المشـكلات التي تواجـه المحتـاج وإمكانيـة القياسـ، والتراكـم، واكتساب الخبرة بدلاً من الجهود المبعثرة والمهدرة.
- إطلاق جائـزة خادم الحرمـين الشريفـين الملك عبدالله بـن عبدالعزيـز لمكافـأة أفضـل مئـة سعـودي وسعوديـة سنويـاً، قاموا بالتغلـب على ظروفهم وصنعـوا نجاحات، وذلـك لغرضـ تعميـم ثقافـة النجـاح من خـلال نماذج وطنيـة ملموسة، والتخلص مـن ثقافة رمي المشكلات على البيئة المحيطة.

- إرســال أفضــل معلمينــا إلى المناطــق والأحيــاء محدودة الدخــل ومنحهم عــلاوة لتحفيزهم علــى المشاركة في رفع مستــوى أبنائهم، لأنه سيشــكل لهم بالمستقبــل رافعة من الفقــر، فضــلاً عــن إرســاء قيــم ومهــارات إدارة الذات والحيــاة وسيكولوجية النجاح لجميع الفئــات العمرية من خــلال التعليم العــام والتركيز على بنــاء الشخصية، وإن كان على حساب مواد الحفظ والتلقين.
- إعــادة هيكلة مصلحة الزكاة والدخــل؛ بفصل الزكاة عن الدخــل وإنشاء بيت للزكاة كي يشكل من القطاع الحكومي والخاص والأهلي ليحظى بمصداقية أعلى ومهنية أفضل.
- تطويــر التشريعــات والأنظمــة والمحاكــم ذات العلاقــة بالأسرة، وخلق شراكة مــع «٢٠٠» مركز للإرشاد الأسري ستقوم الدولــة بإنشائها مع القطاع الأهلي، وتعطي حوافز مادية مغريــة لمن يكافــح مشكلات المخــدرات، والطلاق، والعنف الأسري.
- خصخصــة الصناديــق المتخصصــة للقروض الصغيرة وجمعها في شركة واحدة، في حين تملك الدولة حصة مؤثرة لصناعة السياسات والتأثير فيها مع إدخال شريك دولي.

- الاستعانــة بالمنظمــات الدوليــة في تقــديم الاستشــارات والاستفــادة مــن تجارب الــدول وتأهيــل ٥٠٠ سعودي من القيــادات والخبراء والكفاءات عــبر الابتعاث، أو التدريب المحلــي، أو الدولي للتعاطي مــع تلك المشكلات باحترافية، وتعيينهــم بالمواقــع الحساســة بالعمــل الخــيري، ثم دفع رواتبهــم. تحــت مظلة مركز أبحــاث الفقر الــذي ستقوم الدولة بإنشائه.

(٦)

إن تلك الحلول وحلولاً أخرى لن تجد طريقها للتنفيذ وإنفاذ الإرادة الملكية إلا بدعوة المختصين وأصحاب العلاقة من جهات حكومية وخاصة، وأهلية، ولمدة أسبوع في فندق بالطائف، أو الجبيل، أو أي مدينة أخرى مع إقفال الجوالات والهاتف، وتوافر سكرتارية عالية المهنية، ومركز معلومات أساسي، وذلك للخلوص إلى التوصيات يراعى فيها وضع الحوافز لنقل المواطنين من الرعوية «منح المال» إلى التنمية وفق حزم وعلاجات متناغمة تكفل التغيير الحقيقي للإدارة وأساليب التفكير، ثم ترفع للمقام السامي بحيث تكون محددة التنفيذ بفترة زمنية لا تتعدى ٣٦ شهراً ويختار على رأس كل مقترح خبير سعودي لمتابعة التنفيذ مع إنشاء أمانة عامة مرتبطة بالمقام السامي.

معالي الوزير.. أرجوك افهمني

(١)

ما عادت السعودة موضوعاً اقتصادياً فحسب؛ بل قضية وطنية كبرى. إذا تأملت في أطرافها فستجد أن كل طرف صادق في دعواه ولديه الرغبة الأكيدة في حلها.. والسؤال الكبير... أين المشكلة؟

وقبل الحديث عن المشكلة وحلها دعنا نسمع لكل طرف ودعواه.

(٢)

أنا المواطن طالب الوظيفة أرى أن القطاع الحكومي والخاص يتعاطى معي على أنني مشكلة، وقد صدمت مما هو مطلوب منى مهنياً وعملياً، فهو خلاف ما تعلمته، كما أني لم أحضى من والدي أو أخواتي الكبار بالنصح والإرشاد الأكاديمي والمهني المبكر، فيما تتطلع لي أسرتي مادياً تلبيةً لاحتياجاتها المعيشية التي أثقلت كاهلها.. لقد أخذت ملفي الأخضر العلاقي لمكاتب العمل، ولمست أن أغلب هؤلاء موظفون بيروقراطيون، سيما في المستويات التنفيذية فليس لديهم الهمّ الوطني مضيفين إليها ضعف الكفاءة.

(٣)

أنا القطاع الخاص السعودي.. إن إدعاء المواطن طالب الوظيفة صحيح، ولكن ما ذنبي أن أتحمل حل المشكلة التي لم أكن سبباً فيها، ثم ما دخلي في ضعف مخرجات التعليم التلقيني ونقص التدريب التطبيقي، وأخلاقيات المهنة من الانضباط في الدوام والالتزام بالمهام والدافعية نحو بناء الذات وطاعة الرؤساء، ثم هناك أمر أخر: لما يفترض أننا في عالم مغلق وغير خاضع للمنافسة الدولية؟ إن زيادة التكاليف ستعرض تنافسيتنا للخطر ويهدد دخولنا منظمة التجارة العالمية «الأسواق المفتوحة»، إن استخدام سوط التأشيرات والإجراءات الرقابية لن تجدي نفعاً.

(٤)

أنا القطاع الحكومي.. إن القطاع الخاص صادق جزئياً في دعواه وباطل في الجملة، فهذا القطاع لا يؤمن بتوطين الوظائف أصلاً. إنما يدفعهم في الحقيقة هو الجشع المادي عبر الأجور المنخفضة والأسواق الاستهلاكية المحلية الكبرى ذات الإيرادات المرتفعة وانعدام النظام الضريبي الذي يدحض شكواهم عن المنافسة الدولية، لقد قمنا بالزيارات الميدانية واكتشفنا أن المسؤول عن الموارد البشرية غير سعودي أو سعودي ضعيف

القدرات والتأهيل من أجل الالتفاف على برنامج السعودة، وهو سبب إفشال خططنا فلا يمتلكون خطة تنفيذية للتدريب على رأس العمل أو برامج تدريبية لتأهيل السعوديين مدعمة بمعارف أخلاقيات المهنة فضلاً عن ذلك فان الرواتب والبدلات زهيدة لا تمكّن السعودي من الاستقرار.

(٥)

أينما استمعت أو قرأت يا معالي الوزير ستجد تلك الحجج والدعاوى تتكرر أمام عينيك صباح مساء، وإن حاولت أن تكون جزء من فريق فستصبح جزء من المشكلة، والدور الصحيح هو أن تقوم بإدارة المشكلة ولا تفرق نفسك بالتفاصيل؛ فتحاول أن تحل المشكلة ولن تستطيع؛ بل ساعد كل طرف على تحقيق بعض ما يريد على الأجل القصير والمتوسط ثم ركز على الحلول الإستراتيجية في الأجل الطويل مع القطاعات الحكومية الأخرى ذات العلاقة، ومنها وزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي والمؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني ووزارة التجارة أو مع القطاع غير الربحي من مؤسسات خيرية وإدارات المسؤولية الاجتماعية وصندوق الموارد البشرية والصندوق الخيري، أو القطاع الخاص والغرف التجارية من أجل إصلاحات هيكلية.

أي أن تقوم بتفتيت المشكلة وتحدد دور كل طرف وتكون مجلس أعلى للعمل يلتقي أربع مرات بالسنة لمراجعة مدى التقدم الذي أحرزه كل طرف فيما يخصه من أهداف مع تبادل المعلومات والخبرات والتجارب الميدانية وبذا تكون نجحت في جعل المشكلة مسؤولية الجميع وحولت وزارة العمل لدور المدير القائد بدلاً من طرف بالمواجهة.

(٦)

إن الوطن لن ينتظر تلك الحلول الإستراتيجية وحسب، بل هناك من الحلول العاجلة ما يمكن تنفيذها على الأجل القصير والمتوسط سيما أن هنا أكثر من ثمانية ملايين عامل وافد، ومن تلك الحلول ما يلي:

- لا يمكن البدء بأي حل قبل إيجاد قاعدة البيانات الموحدة «الملف الوظيفي الشامل» لكل سعودي مربوط بنظام التأمينات الاجتماعية والصحة والأمن والتعليم والعمل كي يساعد على التخطيط والتدريب الوظيفي وكشف وإحصاء قوة العمل والوظائف المطلوبة أو الشاغرة.
- فرض حد أدنى للأجور بمبلغ ثلاثة آلاف ريال سعودي التي لا يستطيع أي مواطن عامل أن يعيش الكفاف دون هذا الحد.

- فرض نسب السعودة تصاعدياً بناءً على ربحية الشركات والمؤسسات وليس قطاعياً كما هو معمول به الآن.
- إلزام القطاع الخاص بتخصيص نسبة ١,٥ ٪ من أرباحه السنوية لميزانية تدريب السعوديين وغير السعوديين لرفع كفاءة العاملين داخل تلك الشركات والمؤسسات ما يؤثر على جودة المنتجات والخدمات ويؤثر بشكل غير مباشر على كفاءة العاملين العامة بالسوق.
- أن يحتل توطين الوظائف بالقطاع الحكومي والقطاع الخيري السعودي الأولوية القصوى كونه قطاع غير ربحي ومنها وظائف التمريض والمحاسبة والسكرتارية والاستقبال والأمن وغيرها.
- اعتماد دبلوم تطبيقي بالموارد البشرية على ثلاثة مستويات (أ) (ب) (ج) عبر جهات مرموقة كالجامعات السعودية أو معاهد التدريب الكبرى وفق منهج متفق عليه مع مؤسسات أكاديمية ومهنية دولية ثم تعيين خريجي هذا الدبلوم بإدارات الموارد البشرية بالقطاع الخاص وتحمل صندوق الموارد البشرية (٥٠ ٪) من الراتب مهما علا، كي يصبح هذا السعودي المحترف وكيلاً للتغيير داخل تلك الشركات على أن يجمعهم لقاء سنوي بالتعاون مع الجمعية السعودية للموارد البشرية والتدريب لتبادل خبرات التوطين.

- تصميـم وتنفيذ برنامج «تجسـير الفجوة» بين سوق العمل وخريجـي الثانويـة العامـة و الجامعة، تكـون مدته ثلاثة أشهر يتلقّى فيه الخريـج معارف ومهارات الموظف العامة مـن قيـم العمـل وأخلاقياتـه وحقـوق وواجبـات الموظف ونظـام العمل والعمال السعودي والاتصال الفعال والنجاح الوظيفي وما بادر به صندوق الموارد البشرية بهذا الصدد كان رائعاً ولكن سطحياً حـين أهتم بإعداد المتدربين أكثر من اهتمامه بجودة التدريب.
- خصخصـة مكاتـب العمل علـى أن يربط تقييـم وتجديد عقودهـا بنجاحها في توظيـف السعوديين مـع وضع نظام حوافـز مجزي ومغـري وأنصح باستنسـاخ تجربة مكاتب العمل بالمملكة المتحدة.
- تشجيـع طالبـي العمـل السعوديـين علـى تأهيـل وتدريب أنفسهـم من خلال موقع إليكتروني يمنح شهادات معترف بهـا على أن يحتوي الموقع على كتب وأفلام ووسائل إيضاح وحقائب تدريبية وأشرطة سمعية واستشارات عن بُعد.
- إنشـاء مراكز قياس الميول المهنية والاتجاهـات والتوجيه والنصـح والإرشـاد الوظيفي لحاجات سـوق العمل ورسم المسـارات التدريبية وتقنيات البحث عـن الوظيفية وكتابه السيرة الذاتية وإدارة المقابلات الشخصية.

- تطويـر القضـاء العمـالي نحو سرعـة البـت في القضايا علـى أن يتولاه قضاه متخصصين تابعـين للمجلس الأعلى للقضاء ووزارة العدل.
- تأسيس شركة متخصصة برأس مال مدفوع من الصناديق السعودية ذات العلاقة كي تقدم الاستشارات والتدريب في وضـع خطط توطـين الوظائف والتدريب علـى رأس العمل والاستقطـاب والتعيـين ووضـع الدراسـات الملائمة للحد مـن التسـرب الوظيفـي واستقـرار السعوديـين بشركات ومؤسسات القطاع الخاص على أن تقدم خدماتها بأسعار زهيدة.
- نشـر ثقافـة النجـاح الوظيفي مـن خلال تمكـين الشباب السعوديـين الذيـن حققـوا نجاحـات مهنيـة مـن إلقـاء النـدوات والمحاضـرات وإجـراء المقابـلات التليفزيونيـة والإذاعية كي تعمم تجربة النجاح وجعل الشباب السعودي طالب العمل أن يتفاعل مع نماذج ملموسة تدحض الأوهام التـي سيطرت على بعضهـم وقادتهم لليأسـ وسوء الظن بالمستقبل الوظيفي.
- تأسيسـ شركـة للتدقيق علـى برامج التوطـين والتدريب والتأهيل أو التعاقد مع شركات التدقيق المحاسبية القائمة مع تزويدهـا بالخبرات الفنيـة الكافية بالمـوارد البشرية

وذلك بغرض التأكد من التزام الشركات والمؤسسات بالمعايير والسياسات والخطط الموضوعة من قبل وزارة العمل والمجلس الأعلى للعمل ولا بد من الاعتراف بأن الدور الذي تقوم به الجهات ذات العلاقة غير كافٍ وغير محترف نظراً لضعف الميزانيات أو الكوادر المخصصة لهذا الدور.

- إطلاق جائزة وطنية كبرى باسم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز لأفضل مئة شاب سعودي أثبت كفاءة عالية في أول سنتين من حياته الوظيفية عبر مسابقة تخصص لهذا الغرض.
- تخصيص مكافأة شهرية أسوة بطلاب الجامعات للعاطلين عن العمل بعد استيفاء وتنفيذ المقترحات السابقة كي نضمن أن لا تؤثر سلبياً على تعميق الإتكالية والعزوف عن العمل.
- تشجيع التقاعد المبكر سيما للمعلمات والإداريات أو العمل بنصف الوقت وبنصف الراتب كي يتاح لمن يرغب في التفرغ لتربية أبناءه وإدخال دماء ووظائف جديدة لسوق العمل النسوي.
- فتح سوق العمل الخليجي أمام السعوديين ما يحل جزء من المشكلة وتحقيق الأمن الإستراتيجي والثقافي لدول مجلس

التعـاون الخليجـي خاصـة بعـد ارتفـاع معـدلات العمالة الأجنبية التي تصل إلى نسبة (٨٥ ٪) في بعض بلدانه.

- إلزام القطـاع الخاص بالتأمين الطبي والعـلاوة السنوية بنسبة (٤ ٪) من الراتب لتمكين السعوديين من الاستقرار.
- إن الشـركات والمؤسسـات التي تحقق أرباحـاً كبيرة جداً كشـركات المقـاولات الكـبرى التـي أغلـب موظفيهـا من البلـد الأصلي للمقـاول عليها أن تبتعث وتـدرب سعوديين على برامـج دولية مرموقـة في التخصصات ذات العلاقة بالهندسـة العمرانية والكهربائيـة وإدارة المشاريع وبنسبة (٣ ٪) مـن أرباحها ينص عليها بالعقـود الحكومية سيما أننا نعيش وقادمين على إنفاق حكومي كبير.
- منـح القروض للمشروعـات الصغيرة لطالبـي العمل لمن يملـك مهارات تجارية وحرفية مبكـرة ولكن عبر الشراكة مـع بنك الادخـار والتسليـف أو القنوات الأخـرى بصيغة المشاركة المتناقصة لضمان سداد أصل القرض خلال أربع سنوات مثلاً، يكون عندهـا السعودي اكتسب خبرةً إداريةً تحت إشراف البنك أو الشركة التي ينشئها لهذا الغرض.
- شـراء مشروعات صغـيرة ناجحة وقائمة قـد يملكها غير سعوديين مـن الباطن ثم تسليمها تدريجيـاً لطالب العمل علـى أن تكون مرهونةً لفـترة زمنية محـددة لسداد أصل الدين أو جزء منه.

(٧)

إن الحلول الإستراتيجية التي من الممكن أن يناقشها المجلس الأعلى للعمل هي:

- نؤمـن جميعاً أن القطـاع الحكومي لن يستوعـب إلا نسبة قليلـة من الخريجـين ولذا فمن حق المستفيـد النهائي من مخرجـات التعليم وهـو القطـاع الخاص مـن أن يشارك بفعاليـة في وضـع السياسـة العامـة للتربيـة والتعليم وأن يحدد السعودي الذي يريـد على مدى عشرين سنه قادمة فيما تقـوم وزارة التربيـة والتعليـم ووزارة التعليم العالي والمؤسسة العامة للتعليم الفني والمهني عكس تلك النصائح في المناهج ونوع التخصصات المرغوبة والمعارف والمهارات والاتجاهات السلوكية للطلاب.
- إن الجهـود التي تقوم بهـا المؤسسة العامـة للتعليم الفني والتدريـب المهنـي جهود وطنية جـادة إن كان على مستوى البنـى التحتية أو الأفكار العصريـة التي تجاري متطلبات سـوق العمل في حين تعوق تلـك الجهود؛ الثقافـة الإدارية السائـدة بالمجتمع ولا يمكن حلهـا إلا بخصخصة الإدارة والتشغيـل عـبر شـركاء أجانـب مثـل جمهوريـة ألمانيـا الاتحاديـة وبالتـوازي معه أن يرفع الـكادر الوظيفي كي لا تتسرب الكفاءات خارج المؤسسة.

- إن الإنفـاق الحكومي أو القروض من الصناديق السعودية هـو المحـرك الأساس بالاقتصـاد السعـودي ولـذا فـإن العطـاءات الكـبرى سـوف تحـال ليس علـى الشـركات والمؤسسات الكفؤة فحسب بل على من تكون آثاره التوزيعية أكـبر للمجتمع في خلق الوظائـف أو عقود الباطن لمقاولين سعوديـين وسوف أتحدث لاحقـاً بالتفصيل في مقال باسم «الطبقة الوسطى».
- مراجعة منظومة القيم الدينية كي تصبح ذات عمق إيماني وفعل حضاري يدفع باتجاه عمارة الأرض والإنتاج والبناء.
- تخطيط أنشطة العمل التطوعي والبرامج الصيفية للمرحلة الثانويـة لتهيئة الطالب مبكراً للالتحـاق بسوق العمل عبر إكسابه مهارات صناعة الحياة والنجاح الوظيفي.

معالي الوزير.. إن الحل يكمن في تفتيت المشكلة وتكوين المجلس الأعلى للعمل من أجل حلول طويلة الأجل وقيادة المشكلة لا أن تكون طرفاً فيها إما على المدى القصير والمتوسط فهناك حلول عملية وخطوات صغيرة ولكنها مؤثرة يمكن تنفيذها فوراً تحت إشرافك الشخصي وعشرين مديراً تنفيذياً من خيرة شبابنا السعوديين من مناطق المملكة المختلفة سيستقطبون من القطاع الخاص والحكومي ومن داخل الوزارة وخارجها وفق مشروع لأربع سنوات.

العمل الخيري السعودي.. الفرصة والخطر

يقصد بالعمل الخيري ذلك النشاط المادي أو المعنوي الذي يبذله الإنسان بدوافع قيميه وأخلاقية ولا يبتغي من وراءه تحقيق عائد «ربح» لتحقيق أهداف اجتماعية وإنسانية ووطنية «الصالح العام».

وتبرز أهمية العمل الخيري المدني كونه القطاع الثالث الذي تستمد منه أي أمة حضورها الحضاري لإحداث الحراك المرغوب نحو أهداف الدولة وتحقيق التوازن لإصلاح الآثار السلبية للقطاعين العام «البيروقراطي» والخاص «الرأسمالي»، لا سيما أنه ساحة لأولئك المفكرين و المبشرين وأصحاب المواهب الخاصة الراغبين في استثمار طاقاتهم الفائضة، والتي لم تستطيع وظائفهم استيعابها لأسباب و تعقيدات بيروقراطية أو شخصية، أو أولئك الأخيار الغيورين على أوطانهم والراغبين في بناء آخرتهم ويؤمنون أن الدنيا مزرعة الآخرة.

أما الأهداف التي سيسعى القطاع الثالث «الأهلي» لتحقيقها فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة مجالات:

- السعـي لتلبية حقـوق الإنسان الأساسية مـن غذاء وكساء وسكن وتعليم وعلاج وعمل.

- حماية حقـوق المواطنين من الممارسـات الخاطئة «الظلم» الـذي قـد يقـع خـارج النظـام مـن موظفـين الحكومـة أو أرباب الأموال.
- دعـوة المجتمع للفضيلة والأخـلاق وتعزيز أواصر التراحم والتكاتف والتكافل، لا سيما في الأزمات والنوائب والكوارث.
- استثمـار طاقـات المجتمـع وتوظيـف مهاراتهـم الخاصـة وتطويرهـا، وتنميـة روح المبـادرة والمسئوليـة والشراكة والقيادة.

إن العمل الخيري الأهلي بالمملكة العربية السعودية قطاعٌ هامٌّ للغاية وضرورة وطنية رعاها خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز مستشعراً استكمال الحلقات كاملة (العام - الخاص - الأهلي)، للنهوض بمستقبل ونهضة نوعية واعدة تجعل الناس مسؤولين عن آمالهم وطموحاتهم التي شاركوا في صناعتها وهي الطريقة الوحيدة والمأمونة والواعدة للمشاركة السياسية والمتمشية مع طبيعة مجتمع الجزيرة العربية ومتطلبات التحديث والتطوير، إنها البديل العقلاني والمصلحي عن نظام الأحزاب السياسية الذي يحيل الوطن لساحة صراع غرائزي أو تمثيلية كوميدية ساذجة للديمقراطية.

إن العمل الخيري يواجه عدة مخاطر في مجملها داخلية؛ ما تعيقه

عن تأدية دوره المطلوب فضلاً عن تسويق نفسه للقطاع الحكومي نحو تفويضه دور أكبر في التنمية، ومن تلك المخاطر ما يلي:

١. **القائد الملهم:**

أغلب المؤسسات أو البرامج الخيرية تجد ورائها قائد مبادر عبأ طاقات المجتمع من مسؤولين وشخصيات نافذة ومتطوعين نحو قيام هذا الجسم، إلا أن ذلك القائد تحول مع مرور الزمن بالقابع على كرسي القيادة وإقصاء كل من حوله باستثناء تواصله مع بعض المسؤولين خوفاً من شكوى لاحقة ضده.

إن القائد الملهم قد اختزل كل العمل في شخصه، وبالتالي قضى بعلمه أو بدون علمه، على قلب العمل الخيري وروحه وهو المشاركة.

بل نتج عن هذا الاختزال أخطاء إستراتيجية وقانونية واستثمارية كبرى لن يستطيع أحدٌ أن يحاسبه فهو مجلس الإدارة والعضو المنتدب والرئيس التنفيذي، و بقية العاملين بؤساء ملحقين به «إمعات» ينفذون ما يؤمرون، وغدت المؤسسة أو البرنامج الخيري في الشكل مؤسسة مجتمعية، وفي المضمون مؤسسة فردية لا تحمل حتى سجل تجاري.

٢. الشيخ الإداري:

قامت العديد من المؤسسات والبرامج الخيرية على أكتاف العلماء وطلاب العلم الذين استجاب لهم الناس فوراً لأن السعوديين أكثر المجتمعات تديناً واحتراماً وتقديراً للمشايخ، إلا أن الشيخ كان ينبغي عليه بعد إطلاق شرارة الخير أن يرعاها من خلال مجلس الإدارة إلا أن العديد منهم فضل الانتقال للعمل التنفيذي الإداري وهو لا يملك القدر الكافي من المعارف والمهارات الإدارية التي تمكنه من قيادة المنظمة لتحقيق أهدافها فضلاً أن الخلط بين الشيخ والإداري جعل من الصعوبة بالمراجعة والحوار حول اختيار القرارات الأفضل ما أسقط من حيث يعلم أو لا يعلم قداسة الشريعة على اختياراته الفردية القائمة على التجربة «الخبرات» والممارسة الساذجة، ولا يعني هذا أن بعض العلماء وطلاب العلم قد جمع الله لهم شريف العلم والمواهب الفطرية والإطلاع الواسع وقادوا مؤسساتهم نحو أهدافها المرسومة.

٣. ضعف الشفافية:

تفتقد معظم المؤسسات والبرامج الخيرية لمراكز مالية وقوائم دخل مدققة من مراجع خارجي فيها الإفصاح الكافي لإبراء الذمة وحكم المجتمع على تحقيق الأهداف التي من أجلها

تطوعوا، وأغلب المؤسسات تصدر تقارير تظهر لك الوجه الجميل والجميل فقط، والمبالغ فيه أحياناً أخرى، مع صورة بارزه للقائد الملهم، وضعف الشفافية لا يعود لسوء فيه لا قدر الله إنما قد يكون خوفاً من الأخوة الأعداء، أو جهلاً مهنياً بعلم المحاسبة والمالية، أو رغبة في التملص من القيود التي قد يضعها النظام المحاسبي على صلاحيات المديرين، وفي أحياناً قليلة جهل كبير المحاسبين بالمؤسسة الخيرية ذي الراتب ال (١٥٠٠ ريال) الذي تطور خلال عمله المهني من أمين صندوق حتى أصبح لما هو عليه ولم يلتحق بتأهيل علمي أو برنامج تدريبي مكثف وتجده يبعد المحترفين عن القائد الملهم.

٤. الانتماء الفكري:

أنا أتفهم أن تقوم بجماعة ما خارج المملكة العربية السعودية أن تمارس التمييز في أدائها الخيري حيث صراع العقائد و الأفكار والأحزاب والتيارات، وأرفضه البتة لدينا نظراً لتماسك المجتمع في أغلبية الساحقة حول فكرة التوحيد وتوحيد الدولة، وما يفرقنا هو اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، لكن أن يصل بالمؤسسة أو البرنامج الخيري لإقصاء وتهميش وتصنيف السعودي الآخر فهذه مصيبة تعبر عن محدودية الأفق، وتأويل معيب أعوج للنصوص والجهل بقوانين العمران.

٥. لا.. للقانون:

يتصرف البعض على أن الحق هو ما اتفقنا عليه فقط... وصحيح أن الرضا ركن من أركان العقد لكن على أن لا يخالف الاتفاق نصاً نظامياً أو شرعياً بالمملكة العربية السعودية، فاحترام النظام واجب يمليه عليك حق البيعة فالعمل المدني والخيري لا يعيش في فضاء مجرد خارج النظام العام، وعلى المؤسسات والبرامج الخيرية أن تلجأ لمكاتب محاماة معترف بها ومرموقة للحصول على استشارات قانونية. إن القرارات الكبرى والمصلحة الشرعية أو المدنية من وجهة نظرك ليس قانوناً، ذلك إن أقررت بحقك في الاجتهاد فأنت تقرر مسألة عويصة، أول من يدفع ثمنها أنت حينما يجتهد في تصفيتك رأي آخر فيتحول الوطن لغابة.

٦. العالم قرية صغيرة:

أصبح القرار الخيري بالعمل خارج المملكة العربية السعودية قراراً سياسياً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، ولذا فإن باذلي الخير والراعين للتوحيد والتكافل والتراحم في العالمين العربي والإسلامي عليهم إدراك حجم مسؤولية تصرفاتهم وسلوكهم الذي قد يربط وطننا بالكامل في مأزق ويضعه في دائرة الخطر والمحاسبة والضغوط الدولية،

فكما قبلت أن تحمل الجواز والهوية السعودية ثم تتقدم بهذا الشكل القانوني لدولة أجنبية، قبلت عهدهم بحصولك على فيزا دخول أراضيهم، فعليك أن تحترم مواثيقهم وتعمل في إطار القوانين المرعية..

٧. وقود المعركة:

قد يقع حسنو النية في أتون معركة أكبر منهم بكثير يخطط لها قوى عالمية تفهم واقع الخيرين ثم تجعلهم وقود، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، لذا فعلى متخذي القرار الخيري أن يتناغم مع سياسة الدولة ويقرأ السياسة الدولية والفرصة المتاحة، وهنا يقع التحدي الكبير.

٨. طفاية حريق:

يفتقد العمل الخيري للتخطيط الإستراتيجي طويل الأمد وغياب إدارة الموازنة التخطيطية، وأغلب أنشطته وبرامجه ردود أفعال كطفاية للحرائق والأزمات التي تمر بالعالم العربي والإسلامي، وهي غالباً فزعات عاطفية تخبو بعد زوال الأزمة وبرود الهمة لكنها لا تحل معضلات تنموية أو إصلاح نوعي للقضاء على الجهل والأمية والمرض والأوبئة والإعاقة الثقافية، وتحقيق الكرامة الإنسانية والتقدم.

٩. الاستثمار من المستفيد:

لقد مرت على حالات محددة رأيت فيها الضعف المهني لمديري الاستثمار بالمؤسسات الخيرية، أو الفساد الجزئي باشتراط الحصول على عمولات لإنجاز أي صفقة رابحة أو عمولات كبيرة لإنجاز صفقة خاسرة؛ ما كبد تلك الاستثمارات خسائر كبيرة ولم يسأل عنها أحد.

ومنهم من يدخل أبناءه أو أقربائه أو أصدقائه في تلك المنافع غير المشروعة وهو مساوي لأكل مال اليتيم في العلة قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾ النساء.

١٠. فوضى الإنفاق:

إن غياب مركز المعلومات الموحد للعمل الخيري يجعل ذلك العمل أعمى في الحقيقة، فقد يصيب وقد يهدد الأموال لافتقاده الهدف المبني على دقة المعلومات، وخاصة (تلك الشرائح الأكثر احتياجاً في المكان الصحيح والتوقيت الصحيح)، وتلاحظ أن مؤسسات العمل الخيري والتطوعي تعيش في جزر معزولة عن مجلس ينسق جهودها أو جهة رقابية تفرض سياستها التنموية الاجتماعية.

١١. باب النجار مخلع:

يفتقد العمل الخيري والمدني للقيادات التنفيذية والعاملين المحترفين في إدارة العمل المدني والأهلي؛ نظراً لغياب نظام الحوافز والرواتب الجيدة فأكثر العاملين بؤساء رأيتهم في حياتي المهنية قط وجدتهم في العمل الأهلي، فلا لوائح للموارد البشرية تحترم ولا سلم رواتب، فضلاً عن التأمين الطبي وانتظام الإجازات، بل عليك أن تحرم من كل تلك المزايا أسوة بأقرانك في القطاع الخاص، وأن تحتسب، فيما القائد الملهم والنافذون في تلك المؤسسات صنعوا أمجاداً مالية ومعنوية.

إن كل ما ذكر آنفاً من مخاطر تواجه العمل الخيري هي مخاطر نسبية ومحدودة، وأعلم أنها محل دراسة ومتابعة ورصد حثيث من الجهات الحكومية ذات العلاقة، وأن المستقبل يبشر بخير وفير وإصلاح واسع النطاق للقطاع المدني الأهلي، سيتوج بإطلاق المنظومة القانونية للعمل المدني والاجتماعي بالمملكة العربية السعودية، وقد أطلعت على مسودة القوانين وهي بحق إذا رسمت مفخرة تشريعية تحاكي أكثر النظم تطوراً في العالم وقفزة كبيرة للأمام.

أمام العمل الخيري والمدني فرص واعدة تم الأخذ ببعضٍ منها، وهي في طريقها للترسيم ومنها:

المساعدة السعودية «Saudi Aid»

أصبح من الضروري جمع كافة الأنشطة الخيرية والإنسانية السعودية تحت مظلة واحدة تعمل في إطار سياسات مرسومة ينبثق عنها خطة إستراتيجية تراعي أولويات الحاجة للأمتين العربية والإسلامية، واعتبار نطاق الزمان والمكان والمؤسسات المحلية التنموية، ما يجعلنا متأكدين من تحقيق الأهداف المحدودة بوضوح ودقة مع تفويت الفرصة على من يسعى للفتنة وتخريب جهودنا التي غايتها النهائية القيام بدورنا التاريخي النابع من مسؤوليتنا الدينية والوطنية.

الهيئة السعودية للأزمات والكوارث

مررنا بتجارب عدة خلال العقود الثلاثة الماضية من ثلاثة حروب بالخليج العربي، وكوارث طبيعية داخلية في الشمال والجنوب والغربية، فضلاً عن حربنا مع المتمردين الحوثيين على الحدود السعودية اليمنية، والحاجة ماسة لإنشاء كيان مدني مستقل عن الدفاع المدني التابع لوزارة الداخلية؛ وذلك لأن الجهاز البيروقراطي ليس لدية القدرة على تعبئة الإمكانات والفعاليات الأهلية من متطوعين ورأس مال وإدارة نظراً لكبر حجم مسؤولياته التنفيذية ما يلزم مشاركة المواطنين كي يعبرون عن الانتماء والعاطفة والمشاركة الوجدانية وإشباع الضمير

وصقل وإنتاج المهارات، وتوظيف الطاقة الفائضة لدى المبدعين السعوديين، والتي أجزم من قدرتها على صناعة ملاحم وطنية نفخر بها جميعاً ويكافئها الوطن، وبذا نكون قد قللنا التكاليف وزدنا الإنتاجية الحضارية، وهو غاية الدولة ومقصودها.

بيت الزكاة السعودي:

لابد أن نعترف بأن هناك تسريب جزء من حصة الزكاة خارج المؤسسة الناظمة؛ ذلك أن المزكين يبحثون عن شفافية ومشاركة واسعة في مجالات الإنفاق، والجدير بالدراسة هي إعادة تشكيل مصلحة الزكاة كي تصبح هيئة مستقلة يشارك في مجلس إدارتها القطاع الخاص والأهلي والمؤسسات المتخصصة والأكاديمية؛ ما ينتج عنه إبداعات وفعاليات نوعية للشرائح المستهدفة، وتعطي المجتمع الحق في تحقيق التكافل الذي بحاجة له المعطي والآخر.

شركة خير السعودية للاستشارات والتدريب:

إن نقل العمل الخيري والمدني لتحقيق الأهداف المبتغاة في النظام الجديد الذي سيصدر قريباً بإذن الله، ثم تمشيا مع تطلعات الإصلاح والتجديد في منظومة العمل الإنساني السعودي يستدعي أن تؤسس شركة متخصصة ذات تحالف مع مؤسسة أجنبية عريقة في تقديم الاستشارات والتدريب بالتعاون مع المؤسسات الدولية غير الربحية، ومنها المؤسسات التابعة

للأمم المتحدة، لفرض مساعد المجتمع الأهلي والخيري على تنظيم نفسه وتأهيل كوادره المتخصصة وفق الأنظمة والقوانين والسياسات التي رعتها الحكومة ومجلس الشورى.

أكاديمية الملك عبدالله للعمل الخيري:

إن التدريب والتأهيل المتخصص لنيل الدبلومات المتخصصة والدورات القصيرة والندوات بالتحالف مع الجامعات السعودية والأجنبية ذات الخبرة السابقة تجعل كل من يزاول العمل الخيري أن يلتحق بتلك البرامج، والحصول على شهادة مزاولة العمل الخيري، كما تقوم الأكاديمية بإعداد الدراسات اللازمة للعمل التطوعي والموضوعات ذات العلاقة كي تساعد أولئك المخططين على صياغة السياسات كما تعكسها في الحقائب والبرامج التدريبية ما يسهل تنفيذها لا حقاً.

مجلس سياسات العمل الخيري:

من الصعوبة بمكان أن تجعل العمل الخيري الداخلي أن يعمل ضمن آلية واحدة كجمعية البر فقط، بل دع كلاً يعمل وفق سياسات ونظام عام يضمن تناغم تلك الجهود وعدم تضاربها من خطط الدولة التنموية، بل عنصر مساعد مهم في التنفيذ وتفويض صلاحيات واسعة لذلك المجتمع المحلي أن ينفذ برامجه التنموية تحت إشرافه فيسعد الناس لأنهم صنعوا مستقبلهم.

المراجعة الخارجية

على الوزارة المختصة أن تتفق مع بيوت الخبرة الدولية والمحلية المرخصة من محاسبين قانونيون أن يستقطبوا كوادر مهنية متخصصة بالعمل الخيري لتحقيق الرقابة على سلامة تنفيذ الأنظمة المرعية، كما يساهموا لاحقاً في التحديث حتى لا تغرق الوزارة بالتفاصيل ثم تفقد الرؤية الإستراتيجية.

جائزة الملك عبدالله للعمل الخيري:

في اليوم الوطني علينا أن نحتفل بمن قدم مصلحة الوطن على مصلحته الشخصية؛ وهو حقيقة العمل الخيري وهو أجدر بالتكريم في ذلك اليوم من خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز التي ستحمل الجائزة اسمه.

مركز المعلومات الموحّد:

ضعف المعلومات يعني أنك لا تخطط وإنما تتوقع، فالانتقال للتخطيط يحتاج إلى مركز معلومات موحد فاعل ومستقل كما ذكرت ذلك سابقاً فتكون له هيئة غير ربحية بها كافة المنشورات والكتب والمجلات المتخصصة يصدرها بعد حركة ترجمة واسعة لنقل خبرات العالم الخارجي.

الملتقى السنوي للعمل الخيري:

هناك ملتقيات عدة تحتاج تلك التجربة للتقويم نحو التوحيد، وتكون له أمانة متفرغة للإعداد ثم التنفيذ ومتابعة النشر والتوصيات.

إن فرص العمل الخيري ستعبئ طاقات المجتمع لتكون بديلاً صحياً مثمراً للمشاركة السياسية في بناء الوطن وهو تطلعات أغلب السعوديين لإشباع وطنيتهم وشعورهم بالانتماء.

الطبقة الوسطى

(١)

جاءت الطبقة لغة: «والطبقُ أيضاً من كل شيء: ما ساواه، وقد طابقه مطابقة وطباقاً، ووجهُ الأرض، والذي يؤكل عليه والقرنُ من الزمان، أو عشرون سنةً، ومن الناس، والجرادُ، الكثيرُ، أو الجماعة».

الطبقة اصطلاحاً: «صنف، مرتبة، فئة «class» والطبقة نتيجة تصنيفية لمجموع أو مجمّع على، وتدل في المنطق على مجمل الأغراض المشتركة في ميزة واحدة أو عدة مزايا».

أما الوسطى لغة: الوسطُ، من كل شيّ، أعدله، ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ البقرة – ١٣٤ أي: عدلاً خياراً والوسيط: المتوسط بين المتخاصمين ووسط الشيء: مابين طرفيه ووسطه توسيطاً: قطعه نصفين، أو جعله في الوسط، وتوسط بينهم: عمل الوساطة، وأخذ الوسط بين الجيد والرديء. «إن الطبقة الوسطى تنتمي إلى مفهوم الطبقة الاجتماعية» social class» والذي يعرف اصطلاحاً: «مصطلح في سلم تكوين المجتمع ودرجاته، وتجمع الطبقة فئة من الناس يتساوون إلى حد ما في الدخل والمكانة الاجتماعية، ويتشابهون في أسلوب الحياة ونظرتهم لها».

(٢)

وتؤرخ موسوعة السياسة للطبقة الوسطى في التراث الغربي «middle class»: «طبقة اجتماعية تقع بين الطبقة العليا، التي تتكون من النبلاء والارستقراطيين، وبين الطبقة الدنيا، الشعبية الكادحة، وتمركزها الاجتماعي، الذي يدل على مستوى الدخل والتكوين الفكري والنفسي فهي أعلى دخلاً من الطبقة الدنيا وأكثر تقبلاً للتغيير والتجديد، وأقل تمسكاً بالعادات والتقاليد من الطبقة العليا، وتتجه للتعليم والمهن وتعود جذورها الطبقية في أوروبا إلى الطبقات التي كانت تعمل في المهن الحرة والحرف والتجارة في القرى الكبيرة، وكان للطبقة الوسطى دورها المرموق في تقويض النظام الإقطاعي وبناء النظام الرأسمالي والديمقراطية والليبرالية ونشر التعليم، كما أنها أفرزت الفاشية والنازية من جهة أخرى، وإليها ينتمي أعداد كبيرة من المثقفين والمهنيين والعمال المهرة علاوة على أصحاب الأعمال وبعض الصناعيين».

تنقسم الطبقة الوسطى إلى طبقتين رئيسيتين هما:

الطبقة العاملة والطبقة المؤثرة فالطبقة العاملة working class: «أكبر طبقات المجتمع وأقلها دخلاً، وتشمل كل من يعمل في خدمة غيره سواء كان شخصاً حقيقياً أو اعتبارياً كالشركات

والهيئات، ويتقاضى عن عمله أجراً معيناً في حقول الزراعة والصناعة والخدمات، كما أن التعبير يشمل الذي يعملون عملاً ذهنياً تحت الظروف نفسها».

أما الطبقة المؤثرة «القائدة» ruling class «تعبير يشير إلى كل الأشخاص في المجتمع ممن ينتمون إلى هيئات عامة وخاصة متنوعة، (كالجيش، والدولة والهيئة التعليمية والشركات والهيئات الدينية..) والذين يحتلون مواقع ويقومون بوظائف من الأهمية بحيث تجعلهم يمارسون نفوذاً وتأثيراً».

(٣)

إذا قلنا إن الطبقة مفهوم اقتصادي ينتج طبقة اجتماعية مؤثرة ثم يفرز طبقة مؤثرة «قائدة» وأخرى عاملة فإن الإسلام أشار إلى مصادر كسب الإنسان وهما الملكية والعمل سئل المصطفى ﷺ: «أي الكسب أطيب؟ قال: عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور» أخرجه أحمد.

تنقسم الملكية إلى قسمين: الملكية الخاصة والملكية العامة فأما الملكية الخاصة يعرفها د. عبدالرحمن الشبانات في كتابه أدوات إعادة التوزيع: «الملكية حق جامع مانع تخول المالك السلطات التي تمكنه من الحصول على المزايا المشروعة للشيء بالاستعمال والاستغلال والتصرف، وله أن يمنع غيره من استعماله دون إذنه».

ويقول عن الملكية العامة: «جاءت الشريعة بمفهوم الملكية العامة والتي يكون فيها الملك لمجموع الأمة أو جماعة عامة منها، دون النظر لأشخاص أفرادها».

ويقول عن العمل: «كل عمل أو منفعة يؤديها الإنسان مقابل أجر يستحقه، سواء أكان عملاً يدوياً أو ذهنياً أو إدارياً أو فنياً».

إن تصرف وممارسة أصحاب الملكية العامة والملكية الخاصة والعمال ستخلق خمس طبقات بالمجتمع: «الأغنياء، والميسورين، والمقتدرين، والمساكين، والفقراء».

تنقسم حاجات الإنسان إلى ثلاثة: «ضرورية، وتحسينية، وكمالية» وبهذا فإن الفقير لم يشبع حاجاته الضرورية فضلاً عن التحسينية والكمالية، وأما المسكين فدخله الشهري أشبع حاجاته الضرورية وبعضاً من التحسينية فإما يصبر فيتعفف أو يستدين، أما المقتصد فدخله الشهري أشبع حاجاته الضرورية والتحسينية، وأما الميسور فدخله أشبع حاجاته الضرورية والتحسينية وبعضاً من الكمالية وادخر فائض دخله في صناديق استثمارية من أسهم وسندات إسلامية «صكوك»، أو شراء قطعة أرض أو نشاط تجاري صغير، أما الغني فدخله أشبع حاجاته الضرورية والتحسينية والكمالية «ما لم يكن بخيلاً»، ثم نمّا

فائض ماله «الثروة» فأسس المؤسسات والشركات. إن الطبقة الوسطى بالمفهوم الواسع هم طبقة الميسورين، والمقتصدين، والمساكين، والطبقة الوسطى بالمفهوم الضيق هم طبقة المقتصدين فقط.

(٤)

إن الطبقة الوسطى بالمملكة العربية السعودية هي الطبقة الأغلب من ميسورين ومقتصدين، ومن يقول غير ذلك فهو جاحد للحقيقة متجنياً عليها، ومن ينكر أن شريحة المساكين بدأت في الاتساع لأسباب ذاتية أو سياسات إعادة التوزيع فهو مكابر.

إن من أبرز عوامل زيادة شريحة المساكين هي:

الزيادة الكبيرة في عدد السكان والأعلى في العالم بنسبة نمو سنوية ٣ ٪ منهم ٦٠ ٪ أقل من عشرين سنة أي مستهلكين لا منتجين، كما أن السياسات الطبية الناجحة التي قامت بها الحكومة قد خفضت نسبة موت المواليد، وهي من أفضل المعدلات بالعالم مع زيادة متوسط عمر السعوديين.

كون الطبقة الوسطى في مجملها طبقة عاملة فإن نسبة البطالة المعلنة بلغت (٩ ٪) وعليه فإنها الطبقة الأكثر تضرراً، وقد تناولت الموضوع بالتفصيل بمقالتي «معالي الوزير.. أرجوك افهمني».

لقد ورطت الطبقة الوسطى نفسها بالديون والتي بلغت (١٨٥) مليار ريال سعودي ذهب (٨٥ ٪) منه في إنفاق استهلاكي، مبرر من شريحة المساكين، وغير مبرر من شريحة المقتصدين والميسورين في ظل سياسة ائتمانية منفلتة من القطاع المصرفي، وعدم تكامل وتوجيه السياسة النقدية والمالية من قبل مؤسسة النقد ووزارة المالية ووزارة الشؤون الاجتماعية، وقد تناولت الموضوع بالتفصيل بمقالتي «ستة وسائل لمعالجة الدين الشخصي».

الانفصال الجزئي للمدرسة الاقتصادية ومراكز التأثير المالي والاقتصادي بالمملكة عن مفهوم إعادة التوزيع والاقتصاد الاجتماعي النظري والمؤسسي الذي يعرفه مشروع الموارد البشرية وتنمية المهارات بكندا: «قيام المؤسسات الاجتماعية بتشغيل الشركات وإنتاج السلع والخدمات وفق اقتصاد السوق، لكنها تدير عملياتها وتوجه فوائضها في السعي لتحقيق الأهداف الاجتماعية».

لقد تزايد التفاوت في توزيع الدخل في عصر النظرية الاقتصادية الرأسمالية بين الأغنياء القادرين على إشباع حاجاتهم وتحقيق رغباتهم والمساكين والفقراء العاجزين عن ذلك، والسبب الرئيس

هو أن تلك النظرية ركزت على النمو في الناتج القومي الإجمالي الذي بدوره سيؤثر من خلال اليد الخفية في تعويض كافة المشاركين في العملية الإنتاجية الوطنية ويقضي على ذلك التفاوت.

يقول د. عبدالرحمن الشبانات: «كثير من إستراتيجيات التنمية الرأسمالية تقوم على افتراض أن الفقر يمكن القضاء عليه من خلال معدلات نمو عالية، وأن التوزيع يمكن العناية به بعد أن يتحقق النمو، وهذه الإستراتيجية أثبتت عدم نجاحها من خلال التجارب التنموية لبعض البلدان النامية خاصة في دول أمريكا اللاتينية وبعض دول شرق آسيا...

وقد ركز الفكر الإنمائي المعاصر على قضية التوزيع وأهميتها في تحقيق التنمية، سواء على مستوى الوسائل، أو مستوى الغايات، فبدون توزيع عادل لن يتحقق إنتاج متنام ومستمر، فالنمو في الناتج القومي الإجمالي لا يتساقط رذاذاً على قاعدة المجتمع وبدون توزيع عادل لن يتحقق القضاء على الفقر مهما تزايد حجم الإنتاج ومعدلاته».

عزيزي القارئ.. دع عنك علماء الفكر الإنمائي المعاصر واذهب إلى الفكر الإنمائي عند الملك عبدالعزيز، وستعرف عندها ماذا أقصد بالتوزيع والاقتصاد الاجتماعي: «جاء طلعت حرب إلى

المملكة العربية السعودية في عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥م وسأل الملك عبدالعزيز عما يقال من تحريم شرب الدخان في المملكة، فقال له الملك: بكم يدخن أفقر إنسان عندكم يومياً؟ قال طلعت: بقرشين، ثم سأل الملك: ما عدد الذين يدخنون على أقل تقدير؟ قال طلعت: خمسة في المائة. قال الملك: كم تقدر عدد سكان بلادنا؟ قال طلعت حوالي خمسة ملايين. قال الملك: إذا لم ننظر لجانب التحليل والتحريم وأبيح الدخان في بلادنا، فكم سيكون عدد المدخنين عندنا على هذا القياس؟ قال طلعت: سيكون العدد ربع مليون. قال الملك: وكم سينفقون من جراء ذلك؟ قال طلعت: خمسة آلاف جنيه في اليوم. قال الملك: ليس لدينا دخان يزرع ولا يوجد لدينا شيء من آلاته، فكله يأتي من الخارج. قال طلعت: هو كذلك. قال الملك: أي إننا سنرسل مع فقرنا خمسة آلاف جنيه هدية إلى الخارج كل يوم مقابل نفخه هواء.

قال طلعت: يقول الناس: إن لي شيئاً من العلم بالاقتصاد! والله إنك يا عبدالعزيز، أعلم به مني، وقد ألجمت لساني، وأقمت علي الحجة.» التوزيع عند الملك عبدالعزيز يعني أن الإنفاق المرغوب هو ذلك الإنفاق الذي يستهلك مواد الخام الأولية الوطنية وشراء المعدات الرأسمالية المصنعة محلياً، ثم يخلق فرص العمل بالزراعة وغيرها، على أن يعاد تدوير العائد المادي

«الإيرادات» إلى داخل الاقتصاد الوطني ولا يسرب الفائض إلى خارج الاقتصاد، وكل هذا وذاك يضمن المنفعة والإشباع المشروع للحاجات الضرورية والتحسينية والكمالية.

(٥)

إن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز كان من أولويات مشروعه التجديدي هو استكمال بناء منظومة التنمية الاقتصادية عبر الإنفاق العام والهائل على ذوي الدخل المحدود والعجزة والعاطلين عن العمل عبر التوسع في التحويلات الاجتماعية والمساعدات والمنح والقروض عبر الصناديق والبنوك المتخصصة، كما شجع العمل الخيري المدني للنهوض بدوره، ثم الإنفاق الرأسمالي في التعليم والتعليم الفني فالتعليم يعمل على رفع مستوى مدخلات العمل وزيادة الإنتاجية، وهذا ينعكس على المدى الطويل في زيادة الأجر والدخل.

إن تلك السياسات الإنمائية الاجتماعية والموجه للطبقة الوسطى بلغت ذروتها في ميزانية العام الحالي والبالغة (٥٨٠) مليار ريال ولن تؤتي ثمارها النهائية إلا خلال أربعة سنوات بإذن الله وسيلمسها المواطن تدريجياً، ويتبقى القيام بما يلي:

- تحويـل تلـك السياسـات الإنمائيـة الاجتماعيـة إلى جهة مختصـة تدرس وتراقب وتحلل الآثار التوزيعية للاقتصاد السعـودي، ثـم إصـدار نصائحهـا لولاة الأمـر من خلال تكوين مجلس أعلى اجتماعي أو تطوير المجلس الاقتصادي الحالي ليكون المجلس الاقتصادي والاجتماعي الأعلى.
- تحويـل إدارة حمايـة المستهلـك بوزارة التجـارة إلى هيئة عامـة مستقلة تمارسـ دور الرقابة علـى القطاع الخاص وحماية حقوق المواطن.
- ابتـكار وسائـل تحد مـن تسرب صـافي أربـاح مشروعات الإنفـاق الحكوميـة إلى خـارج الاقتصـاد وإعـادة تدوير ٣٠ ٪ منهـا في شـكل مشروعـات جديـدة أو ١٠ ٪ بدعـم برامـج الاقتصاد الاجتماعي من خـلال إدارات المسؤولية الاجتماعية أو المؤسسات الخيرية المدنية.
- تعزيـز دور الاقتصـاد الاجتماعـي للمشاركـة في تحويـل الإنفاق الرعوى الحكومي إلى إنفاق التمكين للمساعدة في حل المشكلات الاجتماعية.
- إن التعجيل بآثـار القرارات الإستراتيجيـة والكبرى لتلك السياسـات الإنمائية تحتـاج إلى إصـلاح إداري واسع في المنظومـة البيروقراطية الحكوميـة، وقد تحدثت عن ذلك بالتفصيل بمقالتي: «قرارات الملك والجهاز الحكومي».

- علـى وزارة الشؤون الاجتماعيـة أن تشارك وتؤثر في وزارة التخطيط ووزارة المالية ومؤسســة النقد العربي السعودي نحو اقتراح الحلول الوقائية الاجتماعية.
- إن الطبقة الوسطى من مقتصدين وميسورين هم الطبقة الأكـبر، ومخاوفنا تآكل الطبقــة الوسطى له ما يبرره عبر التأكيد على مفهوم الاقتصاد الاجتماعي وسياسات إعادة التوزيع مع أهمية معدلات النمو في إجمالي الناتج الوطني، وإن تنميتنــا ونهضتنــا الجديـدة قـد أدركـت هـذا بعمق وتتطلع لمأسسته.

مكافحة الفساد

(١)

تُرجمت الإرادة الملكية للإصلاح بأمره السامي بتأسيس الهيئة الوطنية لمكافحة الفساد، والمتضمن أمره قوله رعاه الله: وانطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ سورة القصص آية ٧٧، واستشعاراً منا للمسؤولية الملقاة على عاتقنا في حماية المال العام ومحاربة الفساد والقضاء عليه، على هدي كريم من مقاصد شريعتنا المطهرة التي حاربت الفساد، وأوجدت الضمانات، وهيأت الأسباب لمحاصرته، وتطهير المجتمع من آثاره الخطيرة، وتبعاته الوخيمة على الدولة في مؤسساتها، وأفرادها، ومستقبل أجيالها، أمرنا بما هو آت: أولاً: إنشاء الهيئة الوطنية لمكافحة الفساد، ترتبط بنا مباشرة. ثانياً: يعين الأستاذ محمد بن عبدالله الشريف رئيساً للهيئة الوطنية لمكافحة الفساد بمرتبة وزير».

(٢)

الفساد في اللغة: من فسد فسوداً فهو فاسد، والمفسدة خلاف المصلحة، وهو نقيض الصلاح وخروج الشيء عن الاعتدال، ويقال: فسد الشيء بمعنى أنه لم يعد صالحا.

أما في الاصطلاح الشرعي: يدور التعريف الفقهي على المعنى اللغوي، فهو يأتي تارة بمعنى إصابة الشيء بالعطب، ومرة بالاضطراب والخلل، ومرة بمعنى إلحاق الضرر.

أما الفساد الإداري بالوظائف العامة فيعرفه صندوق النقد الدولي: «بأنه سوء استخدام السلطة العامة من أجل مكسب خاص، يتحقق حينما يتقبل الموظف الرسمي رشوة أو يطلبها أو يستجديها أو يبتزها، وقد يكون ذلك مقترناً بسوء استخدام السلطة حينما يقدم رجال الأعمال من القطاع الخاص الرشا بقصد التحايل على السياسات العامة والقوانين أو اللوائح للحصول على ميزة تنافسية أو ربح أو مزايا شخصية، ويمكن أن يحدث سوء استغلال السلطة العامة أيضاً من أجل فهم شخصي حتى لو لم يحدث تقديم رشوة، وذلك عن طريق محاباة الأقارب أو التوصية بهم، أو سرقة موارد الدولة أو تبديدها».

كما تلاحظ فإن الفساد مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصطلح سوء استخدام السلطة الذي يُعّرف بأنه: «قيام من تولى أمراً من أمور الأمة أو عهد إليه به، بالاستفادة أو الانتفاع من عمله أو ولايته لمصلحته الشخصية أو لمصلحة قريب أو صديق، أو استعمال قدرته وقوته الممنوحة له بقصد الانتقام والتشفي».

لقد حذر الباري -جل وعلا- من الفساد، فقال تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾ سورة الأعراف آية ٥٦، إن الله جعل الإنسان خليفة من أجل الإعمار والبناء، فقال تعالى: ﴿قال يا قوم عبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾ سورة هود آية ٦١، فالفاسد ليس عنصر هدم وتخريب، بل عنصر تفويت الفرص على الإصلاح والعمران وقتل الهمم وتشجيع الباطل والدعوة لشيوعه كي تنتشر شِرعة الغاب فيأكل القوي الضعيف.

إن الضلال الذي ما بعده ضلال أن يتأول الفاسد النصوص والوقائع لتسويغ باطله وتحليله بدعوى صلاح القصد، قال تعالى: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ سورة يونس آية ٨١، إن الغاية لا تبرر الوسيلة مطلقاً.

إن قضايا الفساد الكبرى ليست جناية وحسب، فحينما تكون الأمة في حالة حرب ساخنة أو باردة تصبح شبه خيانة عظمى؛ لأن إضعاف الجبهة الداخلية هو شكل من أشكال مظاهرة العدو وفت عضد المدافعة.

(٣)

إن اختيار الموفق لكل خير العادل خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز لمعالي الأستاذ محمد الشريف كأمين عام للهيئة الوطنية لمكافحة الفساد بعث برسالة قوية للمفسدين فبالمقدمات تعرف النتائج.

ومعالي الأستاذ محمد الشريف لا أعرفه إلا من خلال موقفين: أحدهما زيارتي له في بيته استجابة لدعوة عشاء رسمية وعامة قرأت فيه الكرم واللطف والعفة والصمت، أما الموقف الآخر الذي فاجأني به عنايته بقضية الفساد والإصلاح الإداري والدفاع عن حقوق المواطنين بقوة المكلوم، وهذا صنف جيد من البشر حين يفكر القوي في الضعيف، فما بالك إذا كان هذا القوي رئيس مجلس إدارة لأحد كبرى الشركات العقارية ومسؤول بارز في المالية العامة.. يا سيدي إنه أحد نبلاء هذه الدولة الذين ورثوا أخلاق وطن التوحيد وتوحيد الوطن، فهمهم

المصلحة الوطنية الكبرى ومخلصون لقادتهم، وقادتهم عبر ٣٠٠ سنة من فن الحكم يعجبون بالرجال حتى إذا كان عدوهم، فإذا انكسر احتضنوه، إليك نصاً نقلته من كتابه «جوهر الإدارة» دونته في كتابي «أركان القيادة» حينما بين الخلل في أداء المدير بقوله: «غالباً ما يقرب المدير حوله ضعاف الشخصية ومحدودي القدرات والمواهب من مساعدين ومستشارين؛ لأنه يجد أن ذلك أسهل لتقبّل توجيهاته وتعليماته وتنفيذها دون إبداء رأي أو معارضة، وكلما قلَّت ثقة هذا المدير في نفسه برزت هذه الظاهرة أكثر في محيط إدارته....».

ويقول أيضاً: «تتصف قراراته بالتخبط والفردية والتعارض، إذ ليس هناك منهج واضح في دراسة المشكلات وإشراك العاملين في بلورتها أو استقاء آرائهم حولها أو الاستفادة من تجاربهم». ويقول أيضاً: «ينظر المدير في هذه البيئة الإدارية إلى العاملين بنظرة دونية يشوبها الكثير من التعالي والكبرياء وربما الغرور، ويحس إحساساً داخلياً يحاول إخفاءه ويظهر عليه أحياناً، إنهم وجدوا لخدمته وتأييده وتهيئة المناخ له للعمل في راحة تامة دون مشكلات»، ويقول أيضاً: «يعمل المدير على تركيز معارفه وأقاربه والمحسوبين عليه في وظائف قريبة منه لكي يستمد منهم قوته ونفوذه، ويسخرهم لتنفيذ ما يصدره من أوامر وقرارات

وتبني السياسات التي يؤمن لها، وشيئاً فشيئاً يصبح لديه نوع من الإحساس بالعظمة، وأنه أصبح مطاعاً في كل شيء، فيسارع أصحاب المصالح إلى التقرب منه ودعوته لحضور مناسباتهم وبناء علاقات قوية معه مبنية على قضاء مصالح متبادلة، ويبدأ في استخدام نفوذه لتحقيق مكاسب ومصالح شخصية ومادية، وغالباً ما يبدأ هذا التوجه لديه بشيء من الحيطة والحذر والكتمان، ثم لا يلبث أن يصبح سمة ملازمة له، ويصبح العمل بالنسبة له أمراً ثانوياً ووسيلة للهيمنة واستخدام النفوذ وقضاء المصالح الخاصة».

(٤)

إن التناصح والتعاون على البر هو وسيلتنا الشرعية في نظام الحكم الإسلامي السعودي، كما أنها طريقتنا التشاركية في إدارة الشأن العام، وعليه فإني أقترح لمعالي الأمين ما يلي:

أولاً: رَكِّز على الرؤية، وحدد مجال الهيئة بالعمل من خلال الوزارات والهيئات الحكومية الأخرى، وعلى رأسها هيئة التحقيق والادعاء العام ووزارة العدل والمجلس الأعلى للقضاء.

ثانياً: طَوِّر نظم الضبط والرقابة الداخلية بالتعاون مع الهيئات والمؤسسات الدولية المعنية بمعايير مكافحة الفساد والشفافية؛

ما يرفع من كفاءة عمل ديوان المراقبة العامة والمباحث الإدارية أو شركات التدقيق المحاسبي.

ثالثاً: شَجِّع أعضاء مجلس الشورى نحو المسآئلة وفق تفاهم مشترك وآلية تعاون وتفاعل.

رابعاً: استقطب أفضل الكفاءات السعودية القوية الأمينة التي ستضيف قوتها إلى قوتك، وتستكمل نقاط ضعفك إن وجدت، وهم كُثُر، واحرص على وضع سلم عالٍ للرواتب لزيادة مناعتهم من الاختراق.

خامساً: انشر ثقافة محاربة الفساد عبر وسائل الإعلام والإعلان وحملات العلاقات العامة؛ كي تصبح قضية وطنية أصيلة تحصّن خلاله المجتمع ذاتياً.

سادساً: ركز على قضايا الفساد الكبرى ولا تفرق أو تستنزف نفسك في قضايا هامشية وصغيرة.

سابعاً: استعن بمستشارين قانونيين ذوي خلفيات شرعية مهمة، ويفضل مَن كانت له خبرات قضائية من أجل دراسة القضايا للتأكد من سلامتها الكيدية أو التضخيم أو الشبهة التي لا تتوافر فيها أدلة وبراهين وقرائن معتبرة.

ثامناً: ضع نظاماً للحوافز والحماية القضائية لمن يدلي بمعلومات لكشف الفساد.

تاسعاً: طور التشريعات والأنظمة الوقائية مع اقتراح المؤسسات المساعدة للحد من الفساد كإنشاء هيئة وطنية للمناقصات العامة.

عاشـراً: شـكل فريق رصد لـكل ما ينشر عن الفسـاد ثم غربلته وتحليلـه كـي ترقـى إلى قضايـا مـع العنايـة بقنـوات الاتصال والاستماع المختلفة وإتاحتها للمواطنين.

الحـادي عشـر: استعـن بالخـبرات الدوليـة المهنيـة والتجارب المشابهة.

الثاني عشر: أبرز تجربتنا الوطنية عبر الدفاع عن المملكة بالمحافل الدولية، وفوت الفرصة على المعترضين عبر تقارير دورية ذات مصداقية عالية.

(٥)

إن الفساد حالة إنسانية وعالمية حتى في الدول الأكثر تقدماً، ولا يمكن لأي عاقل المطالبة بالقضاء عليها قضاءً مبرماً، إنما المعوّل تطويقها، وهي ليست بالأمر الصعب فنحن نمتلك قيادة ذات إرادة إصلاحية واضحة، وشعباً ضميره يقظ يغذيه الدين وشيم العرب من نخوة وحياء من العيب، حتى من يسرق فينا يتأول ولا يجاهر، بل ينزوي وبقية الخير فيه تلومه ليل نهار، إننا أكبر من الفساد بكثير، فدورنا التاريخي في الجزيرة العربية يتعدى المال إلى الرسالة... هكذا كنا ونحن اليوم وكذلك غداً.